أيمن الدبوسي

أخبار الرّازي

مكتبة
الفكر الجديد
18-11-2017

منشورات الجمل

قصص

أيمن الدبوسي: أخبار الزازي

مكتبة
الفكر الجديد

أيمن الدبوسي

أخبار الرّازي

قَصَص

منشورات الجمل

مكتبة الفكر الجديد

أيمن الدبوسي: أخبار الرّازي ـ قَصَص
الطبعة الأولى ٢٠١٧
كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس
محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ـ ٠١ ـ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2017*
Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مكتبة الفكر الجديد

إلى عَدْنان جَدَي.

مكتبة
الفكر الجديد

أعمل في مُستشفى الرّازي وهذا أمر سيّئ للغاية. هنا، لا يوجد مجانين. إنّهم آخر شيء تتوقّع العثور عليه في هذا المكان. شخصيّاً لم أقابل منهم إلا القليلين جدّاً. في المقابل فإنّ هنالك الكثير من البؤساء. هناك أناسٌ جائعون، وأُناس عراة، ومدمنون. وآخرون فارّون من جحيم العمل والعائلة والزّواج... والجنون. المكان موحش ويبعث على الاكتئاب، وتنبعث من أقسامه رائحة تبغ محلول في البول. وإن كان للمرض النفسيّ من «رائحة»، فتأكّد أنّها حتماً ما ينبعث من أعقاب السّجائر المنقوعة في البول. منذ قليل قابلتُ مُحمّد علي، شابّ فُصاميّ كان يبتسم لي كلّما رآني. ابتسامة محمّد شيء يستحقّ أن يواصل المَرْءُ العمل لأجله في مستشفى الرّازي. إنّها ابتسامة فصاميّة. وحين يبتسم الفُصاميّ، فكأنّما فجر ينبلج أو وليد يفتح عينيه لأوّل مرّة. كلّما قابلتُ محمّد إلاّ وكان يُسِرّ لي بحكمة، وكنتُ أدفع له لقاء ذلك، فيشكرني وينصرف إلى الكافيتيريا. في المرّة السّابقة حكى لي أنّه رأى الله تحت الغطاء ساعة الفجر. فسألته عن ردّ فعله: قال إنّه لم يتمالك عن الضّراط، فاختفى الله.

مكتبة الفكر الجديد

الرّجل الأخضر

اليوم أُصبتُ بالذّعر بعد أن قابلتُ رجلاً أخضر. هذه ليست مزحة. الرّجل الأخضر موجود فعلاً، وكان في مكتبي هذا الصّباح في مُستشفى الرّازي. إيّاكم والاعتقاد بأنّه ذلك الذي عرفتموه في السّينما الأميركيّة قادماً من المرّيخ، أو صاحب قوّة خارقة مثل «هولك» العجيب. كلاّ، الرّجل الأخضر الذي أصابني اليوم بالذّعر، ووجدتني أضع في كفّه المُرتجفة والمُشقّقة، دون تردّد، كلّ المال الذي كان في حوزتي، كان صناعة محلّية؛ تونسيّ مئة بالمئة. الرّجل الأخضر لم يكن مُستعدّاً، وتحت أيّ سبب كان، لسماع كلمة واحدة من قبيل «علاج نفسي» أو «عقدة أوديب»، أو حتى كلمة «تشخيص». لقد فاجأني في مكتبي دون موعد. وقفَ في معطفه الرّثّ وحذائه الغارق في الوحل، يقطر ماء، وكأنّما جيء به للتّوّ من قبر كان يحفره في يوم هطلٍ. وخلفه وقفت إنسانة تُعاني من تأخّر عقليّ عميق، وصرع مُزمن، هي الأخرى كانت ترتجف، ولا أحسب أنّها كانت تُدرك لماذا. الرّجل الأخضر أنفق كل ما لديه من مال ليصل من قريته النّائية إلى مُستشفى الرّازي في هذا اليوم العاصف. وهذا لألاّ يفوّت على ابنته موعدها الشّهري الذي يُحضرها فيه لتجديد وصفة الدّواء. الرّجل الأخضر باغتني وارتمى على يدي يُقبّلها حين منحته كلّ ما كان بجيبي. هو لا يعلمُ بأنّي قمتُ بذلك من شدّة

مكتبة الفكر الجديد

الذّعر والخجل. وكنتُ مُستعدّا لقطع يدي وإعطائه إيّاها لو طلبها. الرّجل الأخضر كان فقيراً فقراً فاحشاً. الفُحشُ، لا يُمكن أن يكون إلاّ الفقر، ولونه أخضر. كان أزرق من البرد والهمّ، وأصفر من الجوع والوَهَن، وهذان الوغدان، إذا التقيا على رجل، يُصيّرانه أخضر اللّون.

مكتبة الفكر الجديد

إله البُكاء

كان يبكي بلا توقّف، حتى قبل أن يدخل المكتب. ثمّ مرّ إلى طور آخر أشدّ، لمّا أراح مؤخرته على الكُرسيّ، وتأكّد من خروج والده الذي صَفق الباب خلفه. وحتى ذلك اليوم، لم أكن أعتقد أنّ شخصاً يُمكن أن يبكي بذلك الشّكل. تَغريدُه كان مُختلفا عن كلّ ما شهِدتُ من نُواح في مُستشفى الرّازي. باختصار، أعتقد أنّه كان إله البكاء، ولا حاجة لمزيد من الإطناب. كُنّا اثنين على الجهة الأخرى من المكتب: أنا، وزميلتي الطّبيبة النفسيّة. يومها هممتُ بالمغادرة، لكنّها رَجَتني أن أمكث معها قليلا حتى تنتهي من معايدة ما تبقّى لها من مرضى، وقد فرغ القسم تقريبا. جاءت لمكتبي تحتمي بي لألاّ ينفرد بها مريض هائج رفضت أن تصف له حُبوب «الباركيزول» المُثيرة، فهدّدها بتشويه وجهها أو تهشيم زجاج سيّارتها، وهذه قصّة أخرى قد أحكيها لاحقا.

البكّاء مرّ للسّرعة القصوى. كان واضحاً أنّه مُصاب باكتئاب حادّ. عيناه كانتا مُنتفختين من الدّموع والأرق، فهو لم ينم منذ أكثر من أسبوعين. لكنّ الأخطر من ذلك كان تهديده الصّريح بالانتحار. حِدّة القلق الذي كان بادياً عليه، والطريقة الواضحة التي صرّح أنّه سينتحر بها، جعلتنا نُدركُ أنّه لم يكن يمزحُ البتّة. كان يُفكّر في الخروج من المكتب والتوجّه مُباشرة نحو القنال ليرمي بنفسه في التّيار. الأمر الإيجابي أنّ البَكّاء قبِل مُباشرة فكرة نزوله بالمُستشفى للعلاج، أوّل ما

مكتبة الفكر الجديد

اقترحنا عليه ذلك. كنّا نعتقد بأنّ الأمر حُسِم، وبأنّنا خلِصْنا يومها، ولم يبق غير ملء استمارات الإيواء، لمّا اقتحم والده المكتب، ليعلن رفضه ذلك الإجراء العلاجيّ. يبدو أنّه كان خلف الباب يسترق السّمع لما يُقال. ظهوره في المشهد جعل البكّاء يرقى إلى مُستويات أسطورية من البكاء. صرنا في الجحيم، وكل ما حولنا يبكي ويذرف الدّموع. ما إن تفرّستُ في والده حتى فهمتُ الأمر. وكنتُ لشدّة اهتمامي بالبكّاء، أوّل ما دخل المكتب، لم أتفطّن إلى أنّ الأب يستحقّ أيضاً كلّ الاهتمام. وجْههُ يوحي بأنّه هو الآخر كان إلهاً سابقاً للبكاء، مع جفاف في العينين، يشير إلى أنّه بلغ سنّ اليأس منذ أمد طويل. وجهه كان نحيفا، مُمتقعا، ميّالا نحو الطّول، وله أنف معقوف ولِحية مُرسَلة خالط سوادها البياض. ملامحه كانت تبعث بحزن مُحيّر، كضرب من الكآبة المنحوتة عميقاً على الجليد. كان أبرد حُزن رأيته في حياتي. والواضح أنّه مُتديّن بشدّة، وناشط دعويّ، فمنذ دخوله المكتب وهو يقصّ علينا حكاية النّفوس التي أنقذها مذ كرّس حياته للدّعوة لله. الأمور تأزّمت فُجاءة بشكل غير مُتوقّع. الأب لم يكن رافضاً لفكرة تناول ابنه دواء مّا، لكنّه يرفض رفضاً قطعيّا نزوله بمُستشفى الرّازي للعلاج. قال إنّه جرّب رُقيته، وسيُجرّب معه «الحِجامة» هذه المرّة، ورُقية ثانية لو كلّف الأمر. وختم قائلا أنّنا نحن نداوي الأعصاب وهو يُداوي النّفوس. في الأثناء، كان البكّاء يُحطّم أرقاما قياسية. زميلتي الطّبيبة بدأت تفقد صبرها واحتدّت لهجتها وهي تُحاول بكلّ السّبل إقناع الأب الذي ازداد تمسّكاً بموقفه. كان قبوله بنزول ابنه بالمُستشفى للعلاج يُعدّ إقراراً بفشله في علاجه. كان عِلمهُ في مواجهة عِلمنا، وطِبّه في مُواجهة طِبّنا. الأمر بات مسألة نرجسيّة. زميلتي الطّبيبة كادت تنتف شعرها وهي تسمعه يقول إنّه سيأخذ ابنه للرّكض والاستجمام في الجبل كلّ صباح بعد صلاة الفجر.

مكتبة الفكر الجديد

«وماذا لو ألقى بنفسه من الجبل وانتحر؟» قالت مُحتدمة.

«سيدخل جهنّم خالداً فيها أبداً»، أجاب الأب، بكلّ برود. في الأثناء، كان البكّاءُ يُحطّم أرقاما قياسيّة جديدة.

«لقد جاوز سنّ البلوغ، إنّه الآن شابّ راشد ومسؤول عن نفسه، وإن هو قرّر النّزول في المُستشفى فلن يقدر على منعه أحد.»

«ما رضاء الله إلاّ برضاء الوالدين»، قال الأب في تحدّ، «وإن لم أكن راضياً عنه فلن يرضى عنه الله، ولن يرى الجنّة.»

«لن يرضى عنّي الله إن لم يرض هو»، قال البكّاء ناظراً نحو والده في يأس، ثم أجهش بالبكاء.

«لكنّه سينتحر إن لم يبقَ هنا ويتلقّ العلاج، وستكون المسؤول الوحيد عن ذلك»، قالت الطّبيبة في تهديد مُباشر، وهي تعلم أنّها إن تركته يُغادر ثمّ ينتحر، فستكون المسؤوليّة على عاتقها.

«إن انتحرَ سيكون المسؤول، ولن يدخل الجنّة»، قال الأب في تعنّت.

«إن انتحرتُ ستكون أنتَ المسؤول، لأنّك كنت تستطيع إنقاذي ولم تفعل»، قال ثم أجهش بالبكاء.

«إن انتحرتَ فلن تدخلَ الجنّة، وستكون المسؤول»، قال مواصلا في تعنّته، بالبرود نفسه.

«بل أنت المسؤول»، صاح الابن.

«في النّار»، قال الأب باقتضاب.

«ولكن...»

«في النّار...»

مكتبة الفكر الجديد

كان موقفا مجنونا لا نُحسد عليه. زميلتي الطّبيبة بقيت مذهولة أمام الرّجلين اللّذين واصلا جدالَهما وقد نسيا وجودنا تماماً، وكل همّها المسكينة وقتها كان مُغادرة القسم في سلام، هي وسيّارتها. كان الأمر وكأنّ الولد انتحرَ وقام للحساب يوم القيامة هو ووالده، ولم يبق من المسألة غير أمر إجرائيّ بسيط يتعلّق بتحديد المسؤوليّة. كنتُ لم أنبس بحرف منذ أن بدأت المُقابلة، لكنّي عند ذلك الحدّ قرّرتُ أن أتدخّل وأضع حدّا لذلك العبث. وكنتُ أعوّل في ذلك على لحيتي الطّويلة المهملة، وعن أسلوب حمزة في الحديث، لشدّة ما كنتُ أقلّده في فيلم الرّسالة لمّا كنتُ صغيرا.

«أرجوكما»، صحتُ في حزم.

الاثنان صمتا، والتفتا نحوي، قبل أن يعود البكّاء ويجهش بالبُكاء.

«تحسبونه شرّا، وهو خير لكم. وتحسبونه خيراً وهو شرّ لكم»، قلتُ بصوت رخيم، مصوّبا بصري نحو الأب الذي تيقّظت حوّاسه وكأنه ينتبه لوجودي لأول مرّة. ثم أضفت:

«إنّما الدّنيا أسباب، فالا تقنطوا من رحمة الله. وعلّ الله جعل شفاءه على أيدينا، فلا تحرمه من رحمة الله يا شيخ»، قلتُ مشدّداً على الكلمات الأخيرة. وكما توقّعت، راح الشّيخ الحزين يتفرّس في ملامحي باحثاً في وجهي، بلهفة، عن بعض من نفسه، وكنتُ أثق في طول لحيتي المُهملة. ثم إنّي أجهزتُ عليه بجملتين أخريين، كانت بعدها زميلتي الطّبيبة تملأ استمارات القبول غير مُصدّقة، مسرعة قدر الإمكان حتى لا يتراجع الأب عن مُوافقته. أخيراً غادروا المكتب جميعهم، زميلتي نحو سيّارتها، والأب نحو مكتب القبول ليُتمّ رفقة ابنه بقيّة الإجراءات. عند ذلك وقفتُ عند الباب وقلتُ بفتور:

مكتبة الفكر الجديد

«هيّا أُخرج من تحت المكتب، أعلم أنك هناك، لقد لمحتُك قبل قليل.»

سمعتُ جلبة صغيرة وضحكة مكتومة، لكنّ أحداً لم يظهر.

«دانتي»، عدتُ أتذمر، «أعلم أنّك هُناك، هيّا أُخرج أيّها اللّعين.»

عند ذلك برز «دانتي أليغييري» من وراء المكتب، ونفض الغبار عن روبه الطّويل، ثم غادر المكتب يجرّ قبقابه الخشبي، وعلى وجهه ابتسامة شرّانيّة.

«وأنت أيضاً يجب أن تخرج»، قلتُ، «أعلم أنّك مُتورّط في الأمر، هذا إن لم يكن ما حصل إحدى ألاعيبك منذ البداية.»

هذه المرّة لم أسمع أيّ جلبة. فأسرعتُ نحو الخزانة الحائطيّة وفتحتها لأعثر على «المعرّي» مُقرفصاً بجسمه النّحيل بين الأوراق والملفات.

«هيّا أُخرج، انتهت اللّعبة الآن»، قلتُ له، لكنّه تجاهلني. «هيّا وإلاّ سأنادي ناظر القسم»، صحتُ به هذه المرّة ولكزته على كتفه.

قفز المعرّي من مكانه وتوجّه نحو باب المكتب فتعثّر في بُرنسه حتى خلته للحظة سيسقط وينكبّ على وجهه. تقدّمتُ نحوه لأسنده، لكنّه هجاني ببيتين وغادر صافقاً الباب خلفه. أطلقتُ زفرة ارتياح وأخذتُ جرعة من كوب قهوتي التي بردت منذ الصّباح، ثم أخذت حقيبتي وغادرتُ المكتب. لم أبتعد عن المُستشفى بسيارتي إلاّ بضعة أمتار، حتى لمحتُ «المعرّي» «ودانتي» يتسكّعان عند محطّة الحافلة، يُسند كلاهما الآخر ويتهامسان كأنّما يُدبّران لأمر مّا.

يبدو أنّهما خرجا في نزهة.

مكتبة الفكر الجديد

مرفوع القلم

قبل قليل لمحتُ محمّد علي في موقف القسم. كان واجما، يستند إلى مقدّمة سيّارة، يُحدّق في اللاّشيء، وفوق رأسه تحوم كوكبة من البعوض. ما إن رآني حتى هرع إليّ وسألني سؤالا غريبا:

«هل يُعدي الجنون يا دكتور؟»

كوكبة البعوض لحقته ولبثت تحوم حول رأسه في طواف غامض.

كنتُ سأقول له:

في حالات قليلة جدّا، ثم امتنعت، وقلتُ له إنّ الجنون لا يُعدي. إلاّ أنّه باغتني بسؤال آخر:

«هل تعلم أنّ المجانين يدخلون الجنّة مُباشرة، ولا يُحاسبون؟»

«يُقال إنّهم مرفوعو القلم»، أردفتُ على كلامه مُبتسما.

«هذا ما قاله الإمام بالأمس في الجامع يا دكتور. خسارة، وددتُ لو كان الجنون مُعديا لأعدي من أحبّ وأدخله الجنّة.»

لم أتمالك نفسي وقلتُ له:

«إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاءُ.»

أضاء وجه محمد بتلك الابتسامة الفريدة، ثم قال لي وأنا أهمّ بالانصراف:

مكتبة الفكر الجديد

«أخشى ألاّ يدخل الجنّة غير المجانين يا دكتور.»

«أخشى أن نكون في الجنّة في هذه الحالة ونحن لا ندري»، قلتُ وانفجرتُ ضاحكا. إلاّ أنّ محمّد علي لاحقني بالكلام وأنا أغادر الموقف:

«دكتور، دكتور، أنا مَنحبّشْ نْكُون مجنون. قُتلو يا ربّي أعطيني الفكر والمال والجنّة نْجيبها بذراعي.»

عند ذلك انقشعت عن رأسه كوكبة البعوض، وافترقنا.

مكتبة الفكر الجديد

فُنون قتاليّة

لقد تأكّد لي، ولأكثر من مرّة، أنّ بعض المرضى لا يحتاجون أدوية، ولا علاجا نفسيّا من أيّ نوع كان. هؤلاء، في الغالب، لا يتكلّمون كثيراً، ولا يتجرّؤون أن يرفعوا أبصارهم نحوك إلاّ ليتأكّدوا من أنّك لن تكيل لهم بصفعة. ولا طائل من دفهم إلى الكلام ليعترفوا لك بما يبدو جليّا على أجسادهم، وتصرخ به نظراتهم. إنّ كلّ ما يحتاجه هؤلاء، سواء كانوا نسوة أو مراهقين أو شيوخا أو أطفالا، هو تسليحهم، أو إلحاقهم بمدارس الفنون القتاليّة ليتعلّموا كيف يُدافعون عن أنفسهم. إنّ لاوعيهم ليخجل من نفسه ويشفق على دفاعاتهم النّفسيّة ويتوقّف عن إرباكهم، بمُجرّد أن يرى ما يتعرّضون إليه من ضرب فعليّ وإهانة وقمع جسديّ يوميّ. في أكثر من مرّة، وددتُ لو ألقيتُ قبّعة النّفسانيّ وارتديت قُفّازي مُلاكمة، ورميتُ بآخرين للمريض، وطفقتُ أعلّمه كيف يرفع قبضتيه ليُدافع عن نفسه ويُتقن تسديد اللّكمات.

مكتبة الفكر الجديد

المُباراة

بالأمس عايدتُ ستّة مرضى. هذا كثير على ما أعتقد. وصلتُ إلى العمل متأخّراً بعض الشيء. وجدتُ فوجا في انتظاري أمام باب المكتب. كنتُ مصابا بصُداع الخُمار ولم أجد فسحة واحدة لأغادر القسم وأحضِر قهوة. مريض يخرج. مريض يدخل. تفحّصتُ تواريخ مواعيدهم بدقّة على البطاقات، كلّها سليمة ومدوّنة بخطّ يدي. (المرضى يزوّرون المواعيد في بعض الأحيان) لقد جاؤوا في الموعد وأنا الذي لم أكن في الموعد. أنهيتُ العمل كذلك مع بعض التّأخير، ولمّا غادرتُ القسم وجدتُ مجموعة من الممرّضين في بدلات رياضيّة. كانوا يتهيؤون لخوض مباراة كرة قدم في ما بينهم بالملعب المعشّب خلف قسم العيادات الخارجيّة. كان هنالك بعض المرضى بألبسة المُستشفى، يقفون حول حافّة الملعب لمُتابعة المباراة التي توشك على الانطلاق. لم أكن جائعاً ولا مُتعجّلاً لمغادرة المُستشفى. لكنّي كنتُ في حاجة ماسّة إلى شرب قهوة سريعة. أحضرتُ واحدة من الكافيتيريا وجلستُ على جذع شجرة مقطوعة لأتابع المُباراة، فجاءني مريض يطلب جرعة. لم يكن ممكنا أن أعطيه ولو قطرة واحدة. تمسّكتُ بقهوتي. كنتُ أحتاجها. ما يزال بي صداع الخُمار. لو مددتُ يدي إلى جيبي وناولته شيئاً سيتجمّع مرضى آخرون حولي يطلبون مثله. وأنا لم

مكتبة الفكر الجديد

أكن في حالة تسمح بالاستماع والاستجابة لأيّ طلب من أيّ كان. قلتُ له إنّي لا أستطيع أن أعطيه جرعة لأنّي مُصاب بزكام، وأخشى أن أعديه. بقي للحظات ينظر إليّ، ثم انصرف متمتما بشيء مّا. انتابني بغتة إحساس بالخجل. أخذتُ جرعة أخيرة من القهوة ثم سكبتها على الأرض. دائماً أسيء التّصرّف. القهوة صارت مرّة ولم يعد بالإمكان شربها.

المُقابلة انطلقت. الممرّضون يركضون ببطء. الإيقاع مُحبط للغاية. تمريرات عشوائيّة هنا وهناك. الكلّ في الهجوم. الكلّ في الدفاع. الكلّ على الكرة. يُشعل الحارس سيجارة، يضعها في فمه ويقفز ليصُدّ تسديدة. تفلتُ الكرة منه وتدخل الشبّاك، لكنّه يُحافظ على السّيجارة في فمه. واحد لصفر. تنطلق المُباراة مرّة أخرى. هذه ليست كرة قدم. هذه مُباراة بين فريق من حيوانات البندا المصابة باكتئاب، وآخر من حيوانات الكسلان المصابة بإسهال. رجال منهكون من العمل، يُواصلون إنهاك أنفسهم مُعتقدين أنّهم يرفّهون عنها. يسحبُ الحارس جوّاله ليردّ على مكالمة بينما يخرج أحد أعضاء فريق البنْدا ليُواصل السّعال متّكئاً على شجرة بُرتقال. يسعل بقوّة. يشخر. صدره يهتز وينتفض. يبصق الرّجل بلغماً غامقاً ثم يغادر المباراة نهائياً. يزجّون بأحد المرضى مكان الحارس الذي نزل للعب. تستمرّ المباراة بنفس الإيقاع...

ذهني شرد أكثر من مرّة وأنا أتابع المباراة. حضرني شبح المرأة التي حاولت الانتحار بالأمس أمام باب المُستشفى. رمت الشّقية بنفسها أمام سيّارة منطلقة فكُسرت ساقها وأصيبت بعدّة كدمات. لحسن الحظ أن سيّارة الإسعاف نقلتها سريعاً إلى مُستشفى القصّاب القريب، لترجع بعد

مكتبة الفكر الجديد

ذلك إلى الرّازي، ويتمّ إيواؤها بساق ملفوفة في الجبس. لكنّ شيئاً من هذا ما كان ليحدُث لو أنّهم قبلوا إيواءها مُباشرة لمّا جاءت تطلب ذلك في الصّباح. إنّها نزيلة سابقة، وقد تعوّد الأطباء على حضورها المُتكرّر هنا. امرأة تُعاني من اكتئاب مزُمن، تلوذ بالمُستشفى تطلب الإيواء كلّما عنّفها زوجها، أو كلّما سئمت حياتها البائسة، وضاق صدرها بأبنائها. مازلتُ أذكر ذلك الارتياح المؤلم الذي بدا على وجهها وهي تهبط من عربة الإسعاف، تتوكّأ على عكّازتين، وتتّجه لإتمام إجراءات القبول، لتنال، باستحقاق، إقامة في قسم ابن الجزّار؛ هُدنة عائلية لالتقاط الأنفاس، قد تصل إلى أسبوعين أو ثلاثة.

ما كنتُ لأتذكّرها على ما أظنّ، فالرّازي يعجّ بأمثالها. لكن كسلان غادر الملعب قبل قليل، بعد أن التوى كاحله وقد تعثّر في حفرة وترك الملعب ليعوّضه أحد المرضى. المُباراة استمرّت بعد ذلك بمزيد من الإصابات. يا للصحّة! كانوا يتساقطون كالذّباب! يحشّون أرجل بعضهم بعضاً. يُرفّهون عن أنفسهم. مرحى ! رياضة وعمل. يا للمجزرة! تتقدّم هجمة، تصل تسديدة نحو الحارس المعوّض. ينقضّ المريض على الكرة. يمسكها قبل أن تلج الشباك، ثم يضعها تحت ثوبه ويهربُ بها مُنطلقاً في حقل البرتقال المُحاذي.

انتهت المباراة!

مكتبة الفكر الجديد

انحراف

لمّا كنت في الثانية عشرة من عمري كنت أحلم بأن أكبر وأغدو مُصلحاً اجتماعيّاً على غرار خير الدّين التّونسي. ثم كبرت... وأترككم تتخيّلون البقيّة.

مكتبة الفكر الجديد

ارتباك

الجميع في الرّازي، تقريبا، يعرفون ماذا يعملون. الأطبّاء، يُروّجون الدّواء. الممرّضون، يُوصِدون الأبواب. العَمَلة المنظّفون، يُنظّفون. حتى المرضى، يؤدّون دورهم على أكمل وجه. إلا النّفسانيّون، من فرط أنْ لا أحد يفهم عملهم، صاروا هم كذلك لا يعرفون ماذا يعملون. أنا الآخر لا أعرف ماذا أفعل في مُستشفى الرّازي. وربّما، لهذا السّبب فقط، أنا باق فيه إلى حدّ هذه اللّحظة.

مكتبة الفكر الجديد

«نحن نعرف ماذا نفعل»

هذه الجملة بقيت تتردّد في ذهني يوما كاملا. كنتُ قد وقعتُ صدفة على مجموعة من الممرّضين الذين بطحوا أحد المرضى أرضاً، وانهالوا عليه ركلا ولطما، بعد أن صدّع رؤوسهم بإلحاحه المُستمرّ حتّى يفتحوا له باب القسم ليخرج ويشتري قهوة من الكفيتيريا ثم يعود. وأمام المشهد وجدتني أصرخ دون أن أريد: «ماذا تفعل؟ لم تضربونه؟» إلاّ أنّ أحد الممرّضين تنحّى عن الرّجل المهزوم، وصاح بي في حماس: «لا تقلق دكتور. نحن نعرف ماذا نفعل. نعرف جيّداً أين نضرب وكيف نضرب» ثم عاد ليلطم المريض الذي لم يُطلق أنّة واحدة، وكلّ ما فعله هو أنّه غطىّ رأسه بيديه وتكوّر على نفسه. مُساعِدة رئيسة القسم مرّت صدفة من هناك، وكانت في طريقها إلى الخروج، فشهِدت ما كان يحصل. لكنّها تصرّفت وكأنّما لم تتفطّن إلى الأمر، والممرّضون يرفعون المريض ويُسندونه على قدميه ليدخُلوا به قاعة أخرى. لحقتها خارج القسم حتّى سيّارتها لأسألها عن رأيها في ما شهِدته قبل قليل، فقالت إنّها تعلم جيّداً ما يحصل من تجاوزات، «أحياناً»، مُشدّدة على الكلمة الأخيرة، لكنّها لا تستطيع فعل أي شيء. «ومن يستطيع فعل شيء؟» كدتُ أصرخ بها. إلاّ أنّها واصلت قائلة إنّ رئيسة القسم جرّبت مرّة مُعاقبة أحد الممرّضين لسوء معاملته للمرضى، فما كان من الوزارة إلاّ

مكتبة الفكر الجديد

أن نقلته للعمل بنوبة اللّيل، ليزداد الأمر سوءا. عند ذلك تسمّرتُ في مكاني وواصلت هي نحو سيّارتها. أحسبُ أنّي فهمتُ جيّداً ماذا كان يقصد الممرّض لمّا طلب منّي ألاّ أقلق لأنّه يعرفُ ماذا يفعل. كان مُحقاً تماماً، وربّما كان الشخص الوحيد الذي يعرفُ سبب وجوده في هذا المكان، ويعرف، خاصّة، ماذا يفعل.

مكتبة الفكر الجديد

عالم مقلوب

أخشى من مجيء ذلك اليوم الذي يفطن فيه المرضى إلى أنّنا موجودون هنا لأجلهم وليس العكس.

أرجو ألاّ أكون موجوداً هنا حين يحدث ذلك.

مكتبة الفكر الجديد

المُغتصَبة

مضت أكثر من ربع ساعة قبل أن أتفطّن إلى أنّ الرّجل الذي يشكو ويتذمّر أمامي منذ أن دخل المكتب لم يكن هو المعنيّ مُباشرة بالحصّة. في الواقع، كانت ابنته هي المريض الذي أنتظِر دخوله. وبما أنّي تعوّدتُ ألاّ أترك المرضى ينتظرون أمام الباب، فقد أدخلته قبل أن يصلني الملفّ الذي عليه بيانات المريض الشّخصيّة. منذ أن دخل وهو يرغي ويزبد. كان يُثرثر بلا توقّف، وقد تجمّع بُصاقه عند زاوية فمه، وتناثر بعضه على الملفّ الضّخم الذي كان يضمّه إلى صدره في حِرص. قال إنّه لم ينم منذ أن وقع «ذلك الأمر»، وصار التّفكير فيه شُغله الشّاغل. وهو لن يسكت على ذلك أبداً، ولن يتوانى عن فعل أيّ شيء لأجل أن ينال «حقّه». وسُيقيم الدّنيا ولن يقعدها. الأمر ليس هيّنا كما يُمكن أن نعتقد. إنّه شرف عائلة. بل شرف منطقة وولاية بأسرها. قال إنّه سبق له أن قابل العديد من الشّخصيات الهامّة قبل وصوله إلى «هنا»، وكلّهم تعاطفوا مع قضيّته. وعليّ ألاّ أستهين به، فهذا الرّجل الذي يجلس أمامي: قابل رئيس منطقة الأمن في جهتهم مرّتين، واستقبله وكيل الجمهوريّة في مكتبه، وتطوّع للتّرافع في قضيّته ثلاثة محامون. كما أنّ أربعة صحف أسبوعيّة كتبت عن الحادثة التي قال إنّها جعلته يعيش على السّجائر والقهوة لأسبوع كامل، قبل أن يتمكّن رجال الشّرطة من القبض على

مكتبة الفكر الجديد

الجُناة. وأمام ذلك التّدفّق المُباغت والاستثارة النّفسيّة التي وصلت حدّ الولع، وجدتني أخمّن مُباشرة في تشخيص معيّن لا طائل من ذكره. وحتى قبل أن أسأله أيّ سؤال، فتح الرّجل الملفّ الضّخم الذي كان معه وراح يُخرج المقالات الصّحفيّة والشهادات الطّبيّة ونسخا من محاضر الشرطة، وغيرها من الوثائق التي طرحها أمامي، لأفهم، أخيرا، وبعد أكثر من رُبع ساعة أنّ ابنته تعرّضت للاغتصاب من قبل خمسة شُبّان.

لم أشأ مُقاطعته، وأوليته كلّ الاهتمام، وتركته يُفرغ جرابه، ليتفنّن في عرض كلّ وثيقة، مهدّداً كلّ لحظة بمُراسلة رئيس الجمهورية ومُنظّمات حقوق الانسان، إن لم ينفّذ القضاء في الجُناة أقسى العقوبات الجزائيّة.

كان لا يزال في غليانه، لمّا دخَلت المكتب مُمرّضة شابّة تمضغ بثقل علكة ضخمة. المُمرّضة ألقت نظرة ناعسة على الرّجل، قبل أن تضع الملفّ الطّبيّ أمامي بضجر، وتُغادر المكتب بمشية مُتمعّجة كشدقيها اللّذين لم يتوقّفا لحظة عن الاجترار. ما إن قرأتُ الاسم على الملفّ، حتى سألتُ الرّجل إن كانت ابنته تنتظر في الخارج؟ فأومأ برأسه بالإيجاب، وعاد إلى تهديداته ومُطالبته بالقصاص. كنتُ لم أفق بعد من صدمة كون ابنته هي المعنيّة بالمقابلة، وأنّنا لم نقل عنها شيئاً يُذكر منذ أكثر من رُبع ساعة، لمّا رأيتُ دوستويفسكي واقفا مُختبئاً وراء ستارة النّافذة المفتوحة، يُطلّ بجانب وجهه ويضحك في تكتّم، ماسكاً فمه بيده، ولحيته تهتزّ. ومن شدّة الحنق كدتُ أرميه بكوب القهوة الفارغ. اللّعين، هو الآخر استطاع أن يضحك على ذقني. كيف لم أتفطّن إلى الأمر منذ البداية؟ فالمشهد برمّته لا يُمكن إلاّ أن يكون من وحي خياله الصّرعيّ.

مكتبة الفكر الجديد

عدتُ إلى الرّجل المُتحمّس أكثر فأكثر لقضيّته، لأوقفه بصعوبة. ثمّ وجدتُ صعوبة أكبر في إخراجه من المكتب وإدخال ابنته لسماعها ومُعايدتها. أمّا «دُوستو» اللّعين، فكان يُطلّ كلّ مرّة بوجهه ليضحك ويعود للاختباء، بلا حذاقة، لتبقى لحيته الطّويلة بارزة من وراء السّتارة. رحتُ أستمع إلى الفتاة وأحدجه بنظرة متوعّدة، على أمل أن يكفّ عن مزاحه الثّقيل، ويُغادر المكتب من الشّباك، كما أحسب أنّه تسلّل منه. ثم نسيتُ وجوده وأنا أستمع إلى الفتاة تقصّ عليّ مأساتها. فبخلاف رجال الشرطة الذين استمعوا إليها بكل انتباه، وأصرّوا، لغرض الدّقة والأمانة، أن تتذكّر إن كان عدد المرّات التي أتاها فيها مُغتصبوها من الخلف تفوق تلك التي أتوها فيها من الأمام، أو إن كانوا جرّبوا إتيانها بالتّزامن من الجهتين، فإن لا أحد استمع أو حاول الاستماع بجدّ إلى قصّتها. الكلّ يتحدّث عنها ولا أحد يُحادثها. وخاصّة والدها الذي لم يترك مكانا إلاّ وأخذها ليعرضها فيه. لم يمرّ أسبوعان على عمليّة الاغتصاب حتى شربت الفتاة مُبيد الفئران، وقد قررت وضع حدّ لعذابها. يومان من الحبس والضّرب في ضيعة منسيّة داخل زريبة للدّواب. يومان أمضتهما في البرد بلا ثياب ولا طعام ولا شراب، يتداول عليها فيهما رُعاةٌ أجلافٌ تفوح منهم رائحة بَعْر وعرق، أصرّ أحدهم أن يأتيها بغله بدلا عنه، حين فشل متاعه في الإنعاظ. لم تتوقّف الفتاة عن النّشيج، وهي تسرد عليّ بأنفاس ممزّقة ما وقع لها في ذلك المكان المُظلم والرّطب. حتى «دُوستو» اللّعين توقّف عن الضّحك وانهمرت دموعه التي أخذ يمسحها بقماش السّتارة، وأحسب أنّه لم يتوقّع أبداً أن تتطوّر الأمور بهذا الشّكل.

كانت الفتاة التي لم يتجاوز عمرها تسعةَ عشر عاما تُعاني من اكتئاب

مكتبة الفكر الجديد

وصدمة نفسيّة حادّة. ورغم أنّ أطوار الاغتصاب تَحْضُرها في النّوم واليقظة، وتصرّ على إعادتها إلى زريبة الشّيطان، كلّما ظنّت لحظة أنّها نسيت ذلك، فإنّ والدها الذي يَعرضها باستمرار على القاصي والدّاني، يُعيد اغتصابها في اليوم أكثر من مرّة، ليُمعن في ذلك لمّا يحتقرها ويتجاهلها بمجرّد أن يعودا إلى البيت مساء. الكلُّ في بيتهم يتحاشى النّظر إليها أو الخوض في الموضوع. فلا داعي لذلك، وكلّ شيء موجود في الملفّ الضّخم، الذي يُعيد الأب ترتيب وثائقه وتفحّصها كل ليلة قبل أن ينام. بغتة دخل الأب المكتب دون استئذان، مُتعلّلا بأنّه نسي أن يُريني أمراً مُهمّاً. ابنته لاذت بالصّمت، وهو يسحب من الملفّ صوراً لها، التُقِطت لحظات بعد أن عثرت عليها الشّرطة. كانت في حالة مُزرية وقد تورّم وجهها الذي تفسّخت ملامحه بفعل الكدمات والسّحجات. أراني الأب الصّور وطلب أن أمدّه حالا بتقرير مُفصّل عن حالة ابنته النّفسيّة حتى يضمّه لبقيّة وثائق الملفّ الذي يُعدّه بعناية ليضمن ربح القضيّة. كان وجهه قريبا من وجهي وقد عاد يُثرثر وبصاقه الرّشّاش يتناثر في كلّ الأنحاء. من أين أتيت بهذا المخلوق يا «دُوستو»؟ همست لنفسي بيأس، و«دُوستو» اللّعين، يعود للضحك، ولحيته بارزة تتراقص من وراء السّتارة. وكلّما نظرت إلى الرّجل المسعور تتحرّك شفته العُليا ومعها شواربه المنفوشة كقرون استشعار صراصير، ينتابني يقين موجع بأنّ هذه الفتاة التّعيسة لن تقدر على تجاوز الأمر أبدا.

كان قد دعا نفسه بنفسه للجلوس وانفرد مرّة أخرى بالكلام، مُنتظراً أن أخطّ له تقريراً خطيراً ولائحة طويلة من الأدوية. إلاّ أنّه صُدم حين أخبرته بأنّني أخصّائيّ نفسيّ وهو ما يعني أنّي لن أصف لابنته أيّ دواء، ولن أمنحه أيّ شهادة طبيّة، وكلّ ما يُمكن أن أفعله هو أن أقدّم علاجا

مكتبة الفكر الجديد

وإحاطة نفسيّة لابنته المصدومة. أدرك الرّجل أنّه لن يجد عندي ما كان يطلبه، لأنّه أعاد بسرعة وثائقه الثّمينة داخل الملف كيفما اتّفق، وقبض على يد ابنته في تشنّج وسحبها خارج المكتب ونظراتها المذعورة تتوسّل إليّ بألاّ أتركه يأخذها.

كلّ ذلك الجنون انتهى بغتة. ووجدتني مع دوستويفسكي وحدنا في المكتب. «أيّها الوسخ اللّعين»، صحتُ، وقذفته بالكأس، فأخطأتْه لتخرج من النّافذة المفتوحة وتتدحرج على عُشب الحديقة دون أن تتكسّر. الملعون برز من وراء السّتارة وقفز خارج النّافذة ليتدحرج بدوره على العشب وينهض راكضاً مُقهقهاً. ومن شدّة الغيظ وجدتني أرتمي خلفه لأقبض عليه. لكنّه لم يخط خطوتين حتى تهاوى على العُشب مرّة أخرى، وأخذ يتمرّغ هذه المرّة في تشنّج عنيف. كان فاقداً للوعي وقد اعوجّ فكّه السّفلي وأخذت عيناه تطْرفان بقوّة وخرج من حلقه صوت شخير مُرعب. كانت نوبة صرع فُجائيّة جعلتني أقف حائراً في ما سأفعله به. ثم إنّي عطفت عليه وأملتُ رأسه على جنبه قليلا وتركته ممدوداً على الأرض وبقيت أتفقّد تنفسه إلى حين بدأت النوبة تنقشع شيئاً فشيئاً. «ها قد بلّلت سروالك أيّها المُخادع»، قلتُ، وأحصيتُ في كفّه المرتخية ستّة أو سبعة من حبوب «الديباكين» التي يبدو أنّه لم يكن يتناولها.

«هل تحتاج شيئا؟» سمعتُ صوتاً يهتف من ورائي. التفت. كانت الممرّضة الشابّة واقفة تضع يدها على خصرها وتُواصل مضغ علكتها الضّخمة في ضجر.

«أجل»، أجبتُها. «أعتقد أنّني في حاجة إلى عُطلة مُطوّلة.»

مكتبة الفكر الجديد

شذرات

أعتقد أنْ لا حاجة لوضع تواريخ على هذه الشّذرات. إنّي لا أنتظر، ممّا أخطّه هنا، في هذا الوقت المُستَرَق، أن يصير كتابا. فليكن شيئاً منهوشاً. مُزْقاً مُكّدساً بلا ترتيب. هناك الكثير من الأشياء الأخرى التي شهِدتها في الرّازي، والتي لا تقلّ أهميّة عمّا قصصته إلى حدّ الآن. لكنّي لم أدوّنها. إمّا لأنّي نسيتها، وإمّا لأنّي لم أجد القوّة والوقت لفعل ذلك. هنالك مثلاً قصصٌ طويلة تقتضي نفَساً دوستويفسكياً لحكايتها. ولكن لا هذا زمان دوستويفسكي ولا أنا هو. في هذا العصر، وحدهم المجانين يقدرون على إنهاء رواية لدوستويفسكي دون أن ينتحروا أو يخرجوا إلى الشّارع لذبح أوّل من يقول لهم مساء الخير. لكنّ الرّهان يبقى في كتابة نصّ دوستويفسكيّ في أقلّ من صفحة أو صفحتين. هذا هو التّحدّي الذي سيقبله «المُقامر»، لو قُدّر له أن يُولد في هذا العصر. كلّ ما يُمكن أن أقوله عن هذه الشّذرات، هو أنّني بدأتُ كتابتها في فصل الشّتاء، وهذا يعني الكثير بالنّسبة إليّ.

مكتبة الفكر الجديد

غريب

أنا غُريب. غُريب. وطول عُمري نَعيش غُريب.

هذه الجُملة التي خطّها مجهول، بأحرف ضخمة، على جدار قسم العيادات الخارجيّة، ظلّت محفورة هناك لأربعة أشهر مُتواصلة، قبل أن يقوموا بإعادة طلاء الجدار هذا الصّباح.

مكتبة الفكر الجديد

سُويداء القهوة

كُوب القهوة انسكب بالكامل وأنا لم أفعل شيئاً لأوقف انتشار البقعة السّوداء على سطح المكتب. أحسستُ وكأنّ أحدهم يُقطّر حبراً في بؤبؤ عينيّ. بقيتُ أتابع انتشار السّائل الثّقيل، القاتم، يسري ببطء، كإغماءة، كظلام، كستارة تهبط على بصري. ذهلتُ. غرقتُ في سُويداء القهوة. كان الكوب الثالث أو الرابع هذا الصّباح. لكنّ سطلا إضافيّا ما كان ليُحرّك رمشاً من رموشي. لبثتُ في تلك الحالة من «الكتاتونيا» جالساً وراء المكتب، إلى حين انتهى وقتُ العمل. راحت القهوة تنجلي عن بصري شيئاً فشيئاً، إلى أن رجعتُ تماماً، ورجع المكتب، والنّافذة التي من ورائها السّماء اللاّمُتناهية. كُلّ شيء كان واضحاً أكثر من اللّزوم. كلّ شيء كان صافياً حتى التّلاشي، ومألوفا، والسّماء الفارغة تصرخ بالزُّرقة المُفزعة. امتصّني فراغ النّافذة. لبثتُ لبعض الوقت أحدق عبره في شرود. بغتة، وعند الرّكن الأيسر، ظهر شاب يركض نصفَ عارٍ نحو بوّابة المُستشفى، يجدّ في إثره نصف حرّاس الرّازي، قبل أن يختفوا جميعاً عند الرّكن الأيمن. المشهدُ مرّ على شاشة النّافذة في صمت، كأنّه فيلم قديم بالأبيض والأسود. قبل أن يعود نصف حراس الرّازي للظّهور، يدفعون الشّاب الهارب أمامهم، يلطمونه على رأسه وظهره،

مكتبة الفكر الجديد

ويداه موثقتان إلى الوراء. عندئذ قمتُ وأخذتُ محفظتي وغادرتُ المكتب.

كان يوما عاديًا من أيّام الرّازي العاديّة.

مكتبة الفكر الجديد

الرّاحة

آه، الرّاحة! كُلّما تخيّلتها رأيتُ الهاوية. هاوية بلا قرار، أسقط فيها بلا نهاية...

إنّ مكانا لا نهائيّا مثل هذا غير موجود على الأرض، ولا في أيّ مكان في العالم. إلاّ إذا ما تعثّر المرْءُ صدفة في الله، وسقط في عمائه اللاّمتناهي.

مكتبة الفكر الجديد

اندهاش

أعتقد أنّ الشّيء الوحيد الذي نجحتُ فيه، أو لنقل نجحتُ في الحفاظ عليه، بعد أكثر من أربع سنوات من العمل في مُستشفى الرّازي، هو، بالتّأكيد، قدرتي على الاندهاش.

مكتبة الفكر الجديد

فاشل

كنتُ دائماً شخصاً مُخيّباً للآمال. وكانوا دائماً يُصرّون على منحي فرصة أخرى... لأخيّب ظنّهم.

مكتبة الفكر الجديد

ربّة الرّازي

ربّما حان الوقتُ للحديث عن «السيّدة ميم» في خضمّ هذه المُذكّرات. إنّها ربّة الرّازي، وأرشيفه الحيّ. ومن لم يعرف ميم، لم يعرف شيئاً عن الرّازي. لقد اعتادت أن تزورني في مكتبي من حين إلى آخر، لتدخّن سيجارة عندي ونتجاذب أطراف الحديث. مضت مدّة طويلة منذ رأيتها آخر مرّة. لكنّي أعتقد أنّها لن تتأخّر في الظهور. ستتأكّد مثل كلّ مرّة من أنّني قبضتُ مرتّبي لتظهر من جديد. هي أيضاً تحكي لي حكايات رائعة، بمقابل بالطّبع. إنّها موسوعة نفسيّة، وتعرف أشياء عن الأدوية والأمراض النفسيّة لا يعرفها طالب في السّنة الثّالثة. ميم بارعة في النّصب والاستغلال، والكثير من الطّلبة الجدد تنطلي عليهم حيلها، فتسلبهم أموالهم، وحتى بعض ثيابهم وأمتعتهم الخاصّة. الرّازي مجالها الحيويّ، وهي تُحسن الصّيد فيه، وتقضي أغلب يومها هناك. من المؤكّد أنّها حاولت الاقتراب منكم أو التحرّش بكم إن زرتم الرّازي سابقا. إنّها تلك المرأة الأربعينيّة السّمراء، ذات الوجه المتوعّد والعينين الثّاقبتين. هل تذكّرتموها الآن؟ لكنّي أقسم لكم أنّها طيّبة جدا، رغم أنّها تُضاجع أغلب المرضى، وتسلبهم أموالهم. ميم لا تتورّع عن القيام بأيّ شيء من أجل الحصول على المال. كانت تحكي لي كيف تُرهبُ الزّوار

مكتبة الفكر الجديد

وتبتزّ الطّلبة، فأكاد أبول من الضحك. ولو تُسعفني الذّاكرة، فسأحكي لكم عمّا فعلته معي أوّل ما التقيتها في الرّزاي.

كانت تنزع طاقم أسنانها وتومئ به خارج فمها ككلب يعضّ عظما هزيلا، أو تكشف عن بطنها لتشهر في وجه زائر تائه ندبة طويلة عميقة أو بعضاً من جلد جنبها المقروح، عاصرة على لحمها ليطفر القيح والدّم. لا أحد كان يصمد طويلا أمام العرض الفظيع، فتراهم يفرغون جيوبهم أمامها ليفرّوا بجلودهم. حكت لي مرّة عمّا فعلته مع الدّكتاتور السّابق لمّا زار الرّازي أوّل التّسعينات. ورغم أنّهم قاموا بحبسها في ذلك الوقت، فإنّ ميم استطاعت بصراخها أن تلفت انتباه الدّكتاتور الذي كان موكبه يمرّ قرب القسم الذي تنزل فيه. الدّكتاتور لم يكن يعلم أنّ مفاجأة كانت في انتظاره، وهو يقترب من قفص الشّباك الحديديّ الذي تتعلّق به ميم. لقد خلعت كلّ ثيابها وتسلّقت القفص عارية، لتربط حمّالة صدرها الحمراء، وثوبها الداخلي الأبيض أعلى الشّبّاك، وراحت تهتف بالنّشيد الوطني: «اقترب يا سيّدي الرّئيس، اقترب. هذا علم تونس! هلمّوا هلموّا لمجد الزّمن!»

مكتبة الفكر الجديد

مادموازيل سيوران

هذه المرّة، وقبلَ أن أبدأ الحصّة، تأكّدتُ من أنّ دوستويفسكي لم يكن مختبئاً وراء السّتارة. وتثبّتُ أيضاً من كون دانتي لم يكن مُندسّا أسفل المكتب، ولا المَعرّي كان محشوراً في الخزانة. غير أنّي أطلقتُ لقب مادموازيل «سُيوران» على المريضة التي غادرت قبل قليل مُغلقة الباب خلفها في هدوء. وقد انتابني يقين بأنّ من كان جالساً قبل لحظات على المقعد المُقابل إنّما هو «إيميل سيوران» بشحمه ولحمه. الفتاة دوّختني. كانت أعسر مريض قابلته منذ مُدّة. كانت تحتوي على رفض أصليّ للحياة لا مثيل له. إنّها مُعرضة عن كل شيء. وكلّ شيء مُقبل عليها في إصرار عجيب. المجيء للرّازي لم يكن في الأصل فكرتها. جاءت لتضع حدّا لإلحاح أحد أصدقائها الأطبّاء. وبين استمرارِه في حثّها على المُعايدة، والمجيء إلى مُستشفى الرّازي، اختارت الحلّ الثّاني، غير مُقتنعة بالخيارين. ولو خُيّرت فعلا بين خيارين، لخيّرت ألاّ تختار. ولَمّا أرادت أن تُوضع في موضِع الاختيار أصلا.

أنا مُتأكّد من أنّها مُكتئبة، لكن ليس تماما. ومُتأكّدٌ من أنّها غير عاديّة، لكن ليس تماماً أيضاً. إنّها لا تفعل شيئا، ولا تبذل أدنى جهد، وبالرّغم من ذلك فإنّ هنالك دائماً شيئاً مّا من أجلها. شيءٌ مّا لا تدري من أين جاء ولا لماذا جاء. كانت تقول لي قبل قليل إنّها أصيبت

مكتبة الفكر الجديد

«بالدّهشة» لمّا صحت هذا الصباح! لقد تعجّبَتْ وانزعجَتْ قليلا لأنها صَحَت من النّوم. «ماذا فعلتُ لأصحو؟!» قالت لي في لهجة هي أبعد ما يكون عن الاحتجاج. إنّها ببساطة لا تفهم ماذا فعَلتْ حتى تصحو من النّوم، وتُصرّ على أنّها لا تفهم لماذا وقع ذلك، خاصّة أنّها لم تقم بأي شيء حتى يتمّ الأمر...

كانت بالضّبط شخصاً عالقاً في الحياة. ولا تجد أدنى مُبرّر لبذل أيّ جهد لتخليص نفسها أو حتّى إيجاد معنى لذلك. إنّها لا تُريد. نُقطة. لا تُريد. وبالرّغم من ذلك يُرادُ لها. لقد درست ثماني سنوات في معهد للموسيقى وأتقنت العزف على آلة الكمان كما كان يشتهي والدها، دون أن يكون لها ولع خاص بتلك الآلة. ثمّ انقطعت عن العزف نهائيّا ولم تُعاود لمس آلتها بمُجرّد أن انتهت الدّروس وتحصّلت على شهادة. والآن، وقد تبقّى لها ثلاثة أشهر كي تُنهي دراستها في الهندسة وتتحصّل على شهادة التخرّج أخذت تفكّر في الانقطاع. قالت لي إنّها لا تستحقّ النّجاح وتشعر ببعض الذّنب لكونها تمكّنت من النّجاح والمرور كلّ سنة، وبمُعدّلات مُحترمة جدا، وذلك دون بذل أيّ مجهود فعلي. أهي مُتشائمة؟ قد تتساءلون. تعيش حالة من الماليخوليا؟ كلاّ. إنّ ذلك أمر مُكلف للغاية ويُعدّ ترفا بالنّسبة إليها. إنّها ليست حتى «بالمُتشائلة» ولا تُفكّر في الانتحار. إنّها مُعرضة عن كلّ شيء اعراضاً أصليّاً، ودون أيّ حماس في القيام بذلك. هذا، تقريبا، ما هي عليه. حتّى ثيابها، التي قالت إنّها ارتدتها هذا الصّباح كيفما اتّفق، كانت مُتّسقة، ولائقة. وجهها جميل، ملامحها ظريفة ورقيقة، وهي ليست مسؤولة عن ذلك. كما أنّها لا تُعاني من أيّ مرض عضويّ. عائلتها ميسورة. والداها وإخوتها وحتى جدّاها وجدّتاها كانوا كلّهم أحياء وفي صحّة جيّدة...

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ أقول إنّها جميلة، وثيابها متناسقة ولم تبذل أدنى جهد في اختيارها، وناجحة في دراستها، وتتقن العزف على آلة الكمان، ولها أصدقاء رائعون يُحبّونها، وأكثر من شابّ يتمنى مُواعدتها والتّعرف عليها. وهي لا ترغب في أيّ شيء من ذلك. بل إنّها لا تُدخن. لكنّها لا تُمانع مثلاً إذا ما ناولها أحد أصدقائها سيجارة. وليس لها أيّ موقف من أيّ أمر كان...

لم أرتبك يوما أمام مريض مثلما شعرتُ بالارتباك أمامها. شعرتُ بخَلخَلة لم أختبرها إلاّ عند قراءتي نُصوص باتّاي وسيوران. لكنّها كانت أخطر، لأنّها لم تكن تملك أيّ وهم اعتقاد، وأيّ عبقريّة في التّعبير عن تشاؤمها الأصليّ...

«إنّي أنتظِر أن ينتهي كلّ هذا»، قالت تختتم حديثها، رافعة يديها قليلا. لم أكن غبيّا لأفهم أنّ «هذا» هذه، تعني في ما تعني أيضاً رغبتها في أن نُنهي الحصّة. وكنتُ متأكداً أنّ أحدهم لو دلّها على الحلّ، وعلى سبيل الخلاص من الحياة فلن ترغب حتّى في الذّهاب إليه. كان واضحاً أيضاً أنّها لا ترغب في أن نقوم بحصّة أخرى ولم أكن لأفرض عليها ذلك. لكنّي قلتُ لها إنّي سأترك لها موعداً مفتوحاً ويُمكن أن تأتي متى أحسّت برغبة في ذلك. غير أنّها قالت بشبه ابتسامة:

«أعتقد أن لا حاجة لذلك». ثم حيّتني بلطف، وغادرت.

مكتبة الفكر الجديد

إشعاعات جنسية

في بعض الأحيان أغادر الرّازي منتصبا بشدّة. لاحظت أنّ تلك الظّاهرة الغريبة لا تُصيبني إلاّ حين أكابد واحداً من تلك الصّباحات الخانقة التي أعايد فيها أكثر من خمسة مرضى دون أن أنال ولو قسطاً ضئيلاً من الراحة. لم أكن أتخيّل أنّ التّعرّض المكثّف والنسقيّ للآلام البشريّة يمكن أن يؤدّي إلى مثل ردّة الفعل العنيفة تلك. كانت تنتابني غُلمة مظلمة ورغبة قاهرة في الانقضاض على أوّل فتاة تعترضني لأغرس فيها شوكتي المسمومة وأرتاح.

مكتبة الفكر الجديد

داخله مفقود وخارجه مولود

قبل يومين شهِدتُ حدثين غير عاديّين. الأوّل كان أثناء وصولي إلى المُستشفى والثاني غداة مُغادرته. لأوّل مرّة في حياتي رأيتُ مريضاً يُغادر بوّابة الرّازي الرّئيسيّة مُرتديا بدلة المرضى المميّزة، دون أن يتعرّض له الحرّاس أو يُوقفوه. بدا لي وجهه مألوفاً وأنا أتجاوزه بالسيّارة وإن لبثتُ أتابع خروجه الغريب في المرآة الداخلية. ورغم أنّه قد قام بحلق شاربيه الكثّين فقد تمكّنتُ من التعرّف عليه: كان فريديريك نيتشه، بعد أن تخلّى عن شاربيه المجنونين.

الحدث الغريب الآخر استوقفني كذلك عند البوابة نفسها، وقد كنتُ أهمّ بمغادرة المُستشفى على عجل. كانت البوابة الحديديّة موصدة لأنّ الحراس كانوا بصدد التصدّي لرجل يُحاول الدّخول بقوّة. كان يُطلق سُباباً مُقذعاً ويُصرّ على الدّخول مُهدّداً الحرّاس بزجاجة نبيذٍ أخذ يلوّح بها في وجوههم. أطلقتُ مُنبّه السيّارة في عصبيّة حتى يفتحوا لي الباب. فقاموا بذلك مواصلين الوقوف في وجه المجنون الذي يحاول الدّخول إلى الرّازي بمحض إرادته. بدا واضحاً أنّ الحرّاس كانوا على استعداد لتركه يمرّ، شريطة أن يتخلّى عن زجاجة الكحول التي بيده. لكنّه كان يُصرّ على إدخالها معه. وجهه هو كذلك بدا لي مألوفا. كان له أنف أحمر بارز وبطن بارزة. ولم يكن لدي أدنى شكّ هذه المرّة في أنّ الرّجل كان تشارلز بوكوفسكي.

مكتبة الفكر الجديد

مَديح الخراء العالي

كلّما استعصى عليّ كاتب وأثار أسلوبه الفذّ إعجابي وغيرتي، وكلّما استعصت عليّ شابّة فاتنة، تخيّلتهما جالسين على المرحاض يخرآن ويستنشقان رائحة اسهالهما الحاد. إلاّ بوكوفسكي، كلما تصوّرته مقعيا يخرأ ازداد عظمة وشأنا، حتى لكأنّه يخرأ من عَلِ.

مكتبة الفكر الجديد

عروس البحر

هذا الصّباح لم يكن في الأجندا غير موعدين. جلبتُ قهوة من الكافيتيريا وعدت إلى المكتب لأطالع ما كتبتُ منذ أيّام، ثمّ أغلقتُ الدّفتر وبقيتُ أفكّر في أمر الفتاة التي عايدتها قبل قليل. اسمها نرجس، أو نسرين، لا يهمّ. المهمّ أنّها حاولت الانتحار بابتلاع علبة أقراص منع الحمل التي لوالدتها. بالطّبع، لم يحصل لها شيء، رغم أنّ والدها سارع بها إلى قسم الاستعجالي. هناك قاموا بتوجيهها إلى الرّازي. والدها يعمل في حظائر البناء. يسكن حيّا شعبيّا ويُعيل عائلة من زوجة وثلاث بنات.

بعد إجراء اختبار ذكاء، أشارت النّتائج إلى أنّ نرجس تُعاني من تأخّر ذهني طفيف. لكنّي ألقيت ورقة الاختبار في القمامة وقلتُ للأب الذي جاء خصّيصاً ليتأكّد من ذلك. إن نسبة ذكاء ابنته عاديّة تماماً، بل يُمكن أن تكون متفوّقة في بعض المجالات. الأب لم يقتنع بكلامي رغم أني شرحتُ له أنّ الذّكاء مُتعدّد الأشكال والمجالات. بالنّسبة إليه ابنته معتوهة وسيجد صعوبة في تزويجها. ذلك كلّ ما كان يشغله. أمّا نرجس فكان لها طموح وحيد: «أن تعوم مع الدّلفين». منذ أن شاهدَتْ وثائقيّا يعرض فتاة تقوم باستعراض في مسبح مع مجموعة من الدّلافين، صار ذلك كلّ هاجسها. نرجس غادرت المدرسة في آخر مرحلة من التّعليم

مكتبة الفكر الجديد

الابتدائيّ، ولم تُنهِ تكوينها للحصول على شهادة خياطة بالمركز المهنيّ الذي ألحقها به والدها. لكنّ نرجس، ومنذ أن شاهدت الفتاة التي تركب ظهر الدّلافين الاستعراضيّة، صار كلّ همّها «أن تعُوم مع الدّلفين». وكلّما كرّرت ذلك، كان الأب يلعن الدّلافين ويكاد ينتف شعره أسفا وخذلانا. «من سيتزوّجها يا دكتور؟ من سيتزوّج حمقاء مثلها؟»

ربّما كان على حقّ! لكنّي متأكّد أنّه سيجد لها زوجا. نرجس فتاة جميلة ببنية جسديّة رشيقة. إنّها عروس بحر. أنا متأكد أنّه سيعثر لها على دلفين، أو فرس نهر، أو حتّى جحش مائيّ يدفنها في البيت ويُولدها أبناء كُثرا. لما غادرت المكتب مع والدها كنتُ أعرف أنّها لن ترجع أبدا. والدها جاء بها لأمر واحد؛ كان يعتقد أنّنا سنقوم بتعديل دماغها أو نجرّب معها شيئاً مّا يُنسيها حكاية الدّلافين. مازلتُ أذكر ابتسامتها الرّائعة وهي تُطبق الباب، ابتسامة حوريّة. لكنّ نرجس، للأسف، كانت حوريّة في صحراء!

مكتبة الفكر الجديد

تَفهمني؟

إنّه ولد مُطيع ومُندفع. تفهمني؟ ولد شاطر. لكنه أحياناً يُثير غضبي. دائماً ما أحاول حمايته. لكن حين يُفقدني أعصابي أضربه. أضربه وأندم. تفهمني؟ هو يعرف مقدار محبتي له. يعرف أنّي أفضّله على إخوته. أضربه حين لا يفهمني. تفهمني؟ إنّه مُختلف. أعرف أنّه بطيء الفهم. الدكتور قال عنه منذ أن كان رضيعاً إنّه سيكون ولداً مختلفاً. لكن، أحياناً، أحسّ أنّه ذكي. أعني «يحسّ بي». تفهمني؟ يحسّ بي ويفهمني. لا أحبّ أن يسخروا منه أو يضحكوا على ذقنه. هو يعلم ذلك. لكنّه يصرّ على ارتكاب الحماقات نفسها دائماً. أنا لا أستطيع أن أكون معه في كلّ مكان. تفهمني؟ يجب أن يعوّل على نفسه. لن أكون موجوداً معه إلى الأبد. أعاتبه لأنّي أحبّه. لكن من سيعتني به بعد منام عيني؟ أمّه تميل إلى إخوته. وإخوته لا يحبّونه. أعرف أنّهم لا يحبونه. سيلقون به في الشّارع. أولاد العاهرة لم يُحرّك لهم جفن حتى حين أوقفته الشّرطة. سأنكّل بهم. أنا لم أتصوّر أن يفعلها. تفهمني؟ لم أتصوّر أن يهاجم شرطيّ المرور. لم أتخيل أن يأخذ ما قلته في لحظة غضب على محمل الجدّ. هم لن يسجونه، ها؟ سيطلقون سراحه، دكتور. أليس كذلك؟ لا أحبّ أن يُقال عنه مُتخلّف عقليّ. إنّه يفهم أغلب ما يقال، لكن بشكل مُختلف. هذا كلّ ما في الأمر. تفهمني؟ لكن إنْ كانت شهادة الإعاقة

مكتبة الفكر الجديد

الذهنية ستطلق سراحه فلا بأس بذلك. أنا لا أحبّ أن يقال عنه مُتخلّف أو مصروع. تفهمني؟ إنّه مُختلف. مُختلف. فليأخذوني بدلا عنه إن لزم لأمر. ربما كان عليّ أن أزن كلامي قبل أن أنطق به في حضوره. أنا أعلم أنّه قام بذلك الأمر عن طيب خاطر. لقد ظنّ أنّ ذلك ما كنت أرغب فيه فعلا. تفهمني؟ أنا المسؤول. لكن دون قصد. لقد سبق أنْ قام بأمر مشابه. ليس مشابها تماما. لكنّه مشابه. لقد اقتلع ضرساً بأصابعه العارية. تفهمني؟ اقتلعها من منبتها وجاءني بها. فعل ذلك لأجلي. تفهمني؟ أنا فهمت أنّه قام بذلك لأجلي. آلمه أن آلم لألمِه. لم يحتمل. تفهمني؟ لم يحتمل أن يراني حزينا بسبب ضرسه التي كانت توجعه. قلت له أنْ يصبر يوما أو يومين حتى أتدبّر المال الكافي وآخذه إلى طبيب الأسنان. لكنّه لم يحتمل رؤيتي حزينا على ألمه. نزع الضّرس التالفة وجاءني بها في كفّه الدّامية ليقول إنّه لم تعد هناك حاجة لأن أتدبّر المال وآخذه للطّبيب. تفهمني؟ كان فرحاً مبتسماً رغم الوجع والدّماء. لقد أبكاني يومها. تفهمني؟ أبكاني وأضحكني. لكنّه أرعبني هذه المرّة. إنّهم لن يأخذوه إلى السّجن دكتور؟ ها؟ سيُطلقون سراحه لأنه مُختلف. أليس كذلك؟ لقد صُدمت وأنا أرى العينين بين يديه. عينان طازجتان. لقد اقتلع عيني الشّرطي. لم أتصور أن يرجع إليه ويأتيني بعينيه. أنا تمنّيت أن أقتلع عينيه لأنّه تعامى عن كلّ من في الطريق. لم يوقف سوانا ولم يحجز غير دراجتنا النّاريّة الخردة. لقد اضطررنا للعودة إلى البيت مشيا على الأقدام، تفهمني؟ أنا كنت مغتاظا وحزينا. لكنّي لم أتصوّر أن يقتلع عيني الشرطي ويأتيني بهما في راحته لأفقسهما كما تمنّيت، تفهمني؟ لقد فعل ذلك لأجلي. لأجل عينيّ. تفهمني؟ تفهمني؟

مكتبة الفكر الجديد

قصّة قصيرة جداً

يبلغ «هاء» من العمر ٢٢ عاما. قتلَ والدُه أمَّه بسبب الخيانة الزّوجيّة لمّا كان «هاء» في سنّ الثامنة. نال والده عقوبة السّجن المؤبّد وراح «هاء» ليعيش مع جدّته وزوج جدته. ومنذ تلك السّنّ وزوج جدته يُفاحشه إلى أنْ بلغ الرّابعة عشرة.

انتهت.

مكتبة الفكر الجديد

الحلّ

... وبما تبقّى في جيبه من مال، اشترى جَلّول حبلا وشنق نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

محظوظ

هذا الصّباح تقيّأتُ قبل أن أذهب إلى العمل. لو حصل ذلك بعد العمل لكان أفضل. إحساس الغثيان ظلّ يُلازمني طوال فترة العمل الصّباحيّ. لحسن الحظ أنّي قدرْتُ أن أمسك نفسي عن القيء مُجدّدا. كان ذلك ليكون فضيحة لو حصل في وجه مريض. والآن، وحيداً في غرفتي، يُمكن أن أتقيّأ دون مُشكلات.

يا للحظّ!

مكتبة الفكر الجديد

مزاج

ترى في أيّ مزاج كان الله حين خلق شَعر الأذنين؟

مكتبة الفكر الجديد

عبد الهاذي

«ما هو اسمك؟» سأل الطّبيب.

«عبد الهاذي»، قال المريض بصوت رخيم وعيناه راجعتان إلى الخلف لا يُرى منهما غير البياض.

«كم هو عمرك؟» سأل الطّبيب.

«عمر الله؛ قِدمَ الله»، أجاب المريض بنفس الصّوت.

«أين تسكن؟» سأل الطّبيب.

«لا أسكن. أنا المسكون»، قال وحدقتاه تعاودان الظّهور.

«إنّه على هذه الحال منذ يومين، منذ جاءت به الشّرطة»، همس الطّبيب الجالس حذوي، وراء المكتب، وعينه لا تفارق المريض على الجهة الأخرى. «حظّا موفّقا»، أردف، ثم نهض وغادر المكتب ليتركني معه وكان يعرفُ ولعي بالمرضى الهذيانيّين.

عبد الهاذي تمّ إيواؤه إجبارياً. جيء به عارياً، مغطّى تماماً بالسّخام والبراز. كان أشعث اللّحية طويل الضّفائر والأظافر، كنسّاك الهند. الشرطة قبضت عليه قرب إحدى المجارير، يكدّس الصّخور حول بالوعة ويغلق الطريق، وكأنه ينوي أن يقيم هيكلا. لم يفتقده أحد ولم يستفسر عنه أحد منذ مجيئه إلى الرّازي. ولم تكن معه أيّ وثيقة، أو

مكتبة الفكر الجديد

بطاقة تثبت هويّته. الأطبّاء الذين عاينوه قبلي لم يحصلوا منه على أيّ معلومة تذكر حول هويّته، ولا حتّى عرفوا اسمه. كتبوا عبد الهاذي على الملفّ، بين ظفرين، إلى حين يتعرّفون على الاسم الحقيقيّ. كان يصرخ منذ قليل، ويقهقه، والممرّضون يدفعونه في الممرّ نحو مكتبي: «إليكم عنّي أيّها الجهلة. أنا نبيّ الله المجنون. بُعثت لأنشر الهِداية بين النّاس.» ولم يكن يتحدّث إلاّ بالفصحى. مرّت دقيقتان، وأنا صامت، أحدّق في المريض الجالس أمامي. هو كذلك لبث صامتا، يحدجني في استكناه، ثم سبقني بالقول، وقد هممتُ بالكلام:

«تريدون علاج الجنون، إلاّ أنّكم حمقى، لا تعلمون أنّ الجنون هو العلاج.»

«علاج ماذا؟»، سألتُ وأنا أفتح دفتراً خاصاً لأدوّن جملة المريض الأخيرة.

«علاج الله. علاج الله بالله.»

«علاج الله!» كرّرت.

«أجل. الله الجنون: تبرير كل جنون.»

واصلتُ تدوين كلام المريض.

«أنت كذلك مجنون»، قال المريض مقهقها، مشيراً نحوي.

«...لأنّك تكتب كلام المجانين، وتصغي إليهم»، أضاف، مستبقاً بالإجابة سؤالاً هممتُ بطرحه.

توقّفتُ عن الكتابة مبتسما، ثم تظاهرت بقراءة الاسم على الملفّ، وقلتُ:

مكتبة الفكر الجديد

«عبد الهاذي! هذا اسم غريب.»

«الاسم المئة. اسم الله الأعظم؛ مفتاح العرفان»، قال المريض محرّكاً يديه أمام وجهه في ليونة وإيقاع، كمن يسحب حبلا من بئر.

أومأتُ برأسي أحثّه على المواصلة، فأضاف بصوت فيه رجعٌ، قبل أن يحرّك أصابعه في الهواء بنعومة، كالمنشئ طلاسم على الرّمل:

«عبد الهاذي تميمة الأجيال. سرّ تريده اليهود والنّصارى. هِبة الذّباب، رسول البراز؛ المدين بدين الإله البراز.»

«الإله البراز،» كرّرتُ مبتسما.

«رسول الإله البراز- ذبابة نورانيّة حطّت على الدّال من اسمي وطارت بالهادي؛ نقطة من براز، مُخلّفة، هي كل حساب العدد واللاّرقم في علوم النّجاسة والقداسة وتصاريف المجاري وما يجري في الشروج والأرحام، ودورة الأجرام.»

«أفهم أن اسمك كان عبد الهادي، ثم صار عبد الهاذي»، قلتُ.

«وهل كنت أطلب غير الهذاية؟!» قال في حدّة. «متى تخلون سبيلي لأقيم هيكل البراز، بيت الإله البراز؟» سأل مُردفا، وعيناه تنسحبان مرّة أخرى إلى الخلف فلا يرى منهما غير بياضٍ رخام.

عبد الهاذي لم يؤثّر فيه الدّواء إطلاقا، وكأنّه يشرب ماء. الطّبيب الذي يُتابعه قام بعزله لأن لديه قدرة خارقة على التّأثير في المرضى الآخرين، واستجلابهم ليدخلوا في دينه- دين الهاذي كما يسمّيه؛ دين اخرأ- الإله البراز. حدث ذلك في ليلة لن تُنسى، أقام فيها صلوات البراز. صلاة كبرى وصلاة وسطى وصلاة صغرى؛ ثلاث صلوات في اليوم، يدعو المرضى إليها، منذراً بطوفان من الخراء، لا يُبقي ولا يذر.

مكتبة الفكر الجديد

قال إن المدينة ستندكُّ بالنّوء الأعظم؛ ذبحة شرجية تطلِق أعتى موجة من الخراء والخراب، ليَخرُج الحيّ من البراز والبراز من الحيّ- فالأرض لن تصلح إلاّ إذا ما تعمّدت بالبزّبل. عبد الهاذي كان يُعلّم المرضى صلوات البراز استعداداً للقيامة. البراز طهرٌ، كان يقول. يُجفّف سبعة أيّام تُتلى فيها عليه آيات من سِفر الخراء، قبل أن يُهرس ويُلقى على النار بخورا، تصّاعد روحه إيذانا بقيامة الإله البراز. في تلك اللّيلة النّتنة، جمع عبد الهاذي مُريديه من المرضى في حلقة- وكانوا ستّةً عراةً، ليتبرّز كل واحد منهم، ويدهن كامل جسمه بخرائه، ثم بقوا مُقرفصين حتّى الفجر، يصلّون؛ يتعقّبون شمّا، رائحة الإله البراز. إلى أن جفّت جلودهم ويبست، وصاروا تماثيل من براز. كان عبد الهاذي من أصعب المرضى الذين شهدهم القسم منذ سنوات، لم يترك لرئيس القسم غير حلّ واحد: إطلاقه والتّخلص منه ليتبرّز بعيداً قبل أن يحوّل القسم إلى مرحاض نفسيّ.

مكتبة الفكر الجديد

موسم الأنبياء

الرّازي صار متحفا للأنبياء.

سأجيب حين يسألونني، وحين لا يسألونني، بأنّني عاصرتُ أكثر من نبيّ في حياتي، وشهدتُ منهم ذا الكتاب وغَير ذي الكتاب. نبيٌّ آخر سِيق إلى القسم اليوم: اسمه محمّد إبراهيم، ولم يتجاوز السّابعة عشرة إلاّ بقليل. كان موسم الأنبياء دون جدال. لقد سبق أن سمعتُ عن أنبياء آخرين في أقسام الرّازي الأخرى، فالرّبيع موسم الأنبياء والمسّ الهذياني البهيج، لكن محمد إبراهيم كان فريدا... «أنا أصغر من أُوحيَ إليه، وتلك معجزتي»، هكذا كان يقول. إنّ الأمر الذي شدّ انتباهي في هُذاء النّبي الصّغير، كان مقدار ما تضمّنه خطابه من وعي سياسي. فرغم أنّه غادر المدرسة قُبيل إنهاء تعليمه الابتدائي، وينتمي إلى طبقة كادحة فقيرة، فإنّ الذي يسمع لهُذاء النّبي الصّغير لا يكاد يصدّق ذلك. يقول إنّ الله أرسله ليحرّر القدس ومكّة ويعيد للفُرات صفاءه. يستشهد بحنّبعل والإسكندر وصلاح الدّين، ويرثي صدّاما ويتحسّر على حال العرب وشقاقهم.

الأمر كله بدأ بغتة، بشكل حادّ، هذا الصّباح. محمّد إبراهيم غادر المقهى إلى العمل صباحا، بعد أن استمع إلى نشرة الأخبار، لتكون قهوته بطعم التّفجيرات ودماء القتلى في بغداد ودمشق. هو الرّاجع إلى العمل من عطلة عيد الفطر، لم يكن معه حتى ثمن القهوة التي دفع

مكتبة الفكر الجديد

حسابها صديق له. فما يحصّله من مال زهيد -أجرة أسبوع من العمل في معمل أحذية- كان يبدّده في يومين على أقصى تقدير. كان يقول لي منذ قليل بأنّه تفطّن إلى أنّ خللا مّا طرأ على معنى الدّنيا، وأنّها ليست كما يجب أن تكون. وكان يقول في تدفّق للكلام بديع:

«كنت أرى السّيارات تسير، والشّاحنات تُحمّل بالبضائع وتسير، وكذلك البواخر، تُشحن بالسّلع والركّاب وتُبحر، والطائرات تطير، ولا أملك من ذلك شيئا. وكنت أرى المباني والقصور تُشيّد، والحقول والأشجار تزهر وتثمر، والشّياه والأبقار تُسمّن لتحلب وتُذبح، ولا أصيب من ذلك شيئا.»

ويُضيف: «وحين ناديت ربّي أسأله سرّ هذا العبث والجور، لم تُجبني سوى قهقهة الشّيطان اللّئيم. وكِدت أجحد ربّي يرى الجور ولا يردّه، ونحن حزبه وملّته. ثمّ جرفني دفق من الأسئلة، واجتاحتني شدّة عارمة. وكنت أهرول وأطْرفُ. أسأل نفسي أسئلة وأجيب. فينقلب الجواب سؤالا، فأسأل من جديد، ثم أجيب وأسأل... وبقيتُ أهيم على حالي تلك يكاد ذهني يتمزّق، إذ انبثق البرهان في قلبي، وقد رَفق بي ربّي، وأنزل سكينة على قلبي. وسمعت صوتاً مبشّراً يكلّمني ويُخبرني أنّ روح الرّسول تلبّست بروحي. فرُحت أنشد وقد انتابتني رعدة ونشوة:

روحي روحه

قلبي قلبه

عقلي عقله

أنا النّبي

جدّ النّبي

مكتبة الفكر الجديد

أبو النّبي
ابن النّبي

روحي روحه
قلبي قلبه
عقلي عقله

أنا النّبي
جدّ النّبي
أبو النّبي
ابن النّبي...»

قال: «ثمّ سمعت كلّ شيء يُكلّمني ويُهلّل، وقد وقع لي سرّ الخفاء. رأيت لون الدّنيا يتبدّل. فينقلب إلى أخضر، فيدوم ذلك قليلا، ثم ينقلب إلى أزرق فأحمر، ولا يستقرّ على حال. ورأيت عصفوراً يحطّ من السّماء ويبشّرني بنبوّتي. وكلّمني حجر، وكلّمتني نملة تُبشّرني بنبوّتي. فأحسست عندها بقوّة ليس بعدها قوّة، وعلمت ساعتها أنيّ نُذرت لشأن عظيم...»

كنتُ أدوّن ما يقوله محاذراً ألاّ أُغفل أي كلمة، لأسأله في الآخر كيف يُفسّر بعد كلّ هذا وجوده بمستشفى الرّازي؟

قال لي محمّد إبراهيم إنّه لم يبلغ الأربعين بعد حتّى يتبعه الناس. فيجب ألاّ نَنسى أنّه أصغر الأنبياء، وأنّ عليه أن يُكابد كما كابد الأنبياء.

مكتبة الفكر الجديد

اللّه الشّمس

إن للآلهة على الأرض أوطانا سماويّة تهبط إليها حين يُضجرها الخلود. «ماتشو بيتشو» كانت وستظل صخرة الرّب العالية، هِبة «باتشاكوتي»، ملك ملوك «إنكا»، للإله الشّمس المُغدق نوره على الكائنات. وإنّ الأرباب ليخُطر لهم بين الحين والآخر المشي مع البشر جنبا إلى جنب، فيتّخذون من السّجايا هيأة الملوك أو المجانين، ويمكثون في هالة عُليا، حتى وَهُمْ في هيأتهم البشرية، بعيدين عن الدّنس، أجلاّء، مُصانين.

ثمّ من قال إنّ الآلهة قد غادروا الأرض يوما؟ من قال إنّهم لا يُكلّمون إذا كُلّموا؟ وأنّهم لا يُستدعون إلاّ في المعابد؟ أقول لكم إنّ الآلهة يعيشون بيننا، يمشون إلى جوارنا ولا ننتبه إليهم. قد تكونون للتّو مررتم بإله، إلاّ أنّ انشغالكم بمآربكم جعلكم تمرّون دونه. قد تطلبون الآلهة في السّماء، وترفعون إليها رؤوسكم بالدعاء، وتُغفلون شحاذا من أبناء السّبيل، أو مجنونا لا تلمحونه إلا لتتحاشوه، وهو في الأصل إله، وأنتم لا تعلمون.

وإنّ على الأرض أوطانا شاهقة مشت فوقها الآلهة وقد تاقت لعيش البشر. أوطان أرفع من سماء الآلهة، تقاتل فوقها البشر والأرباب، وتنازعوا المشي تحت شمسها الملتهبة. أرض يُونان هي أرض الجبابرة

مكتبة الفكر الجديد

من بشر وآلهة. وهي من حيث تميّزها، «أتلانتس» مفقودة، انطفأ أفقها، وما يزال يُشعّ علينا نورها القادم من أقاصي الغُيوب. وأرض الرّازي التي مشى عليها الأنبياء، وسار فوقها الحالمون، توقّدت، وعَلَتْ، حتّى سقط عليها من آفاق يونان قبسٌ. وليس مُصادفة أن ألقى الإله الشّمس في حدائقها. وقد لقيتُ قبله عليها آلهة آخرين، وآلهات هاذيات. لكنّ الإله الشّمس في بهائه لا يُشبه أحدا. كان في هيأته البشريّة بوجه كقناع ملك، مهيبا، كثير التّغضّنات، وفي عينه زُرقة كالذّبح. تعقّبته ثلاثة أيّام، وكلّما صادفته في مبذله الأزرق الطّويل، كنتُ أسأله:

«ما هو اسمك؟»

ولثلاث مرات كان يُجيب:

«الله الشّمس»، وعينه تموج بالعاصف المُشتعل.

وكلما رأيته بعد ذلك، كنتُ أرتّل أمامه من سِفر الأنوار:

«هو الواحد المُستعِر، المُنشغل بذاته، اللاّمبالي، السيّد المُحتقر. هو القُرص المُضطرم، المُغدق نفسه، المُستحيل على كلّ بصر. الله الشمس، أتون، ربّ أختتون، وكلّ البشر.»

وأمضي...

مكتبة الفكر الجديد

أقلّ من لاشيء

قبل استحداث مُضادّات الذّهان كان الطّب النّفسيّ عبارة عن لا شيء. بعد استحداث مضادّات الذّهان صار الطّب النّفسيّ أقلّ من لا شيء.

مكتبة الفكر الجديد

تعريف

الأخصّائيّ النّفسيّ السّريري الاستشفائيّ: مِبْوَلَةٌ تُفكّر.

مكتبة الفكر الجديد

لوعة الأليف اللاّموصوف...

كان نِزار شابا فُصاميّا عمره ثلاثة وعشرين عاما. صار يتردّد على عيادتي بعد أن دخل مكتبي مرّة على سبيل الخطإ. صرتُ أتابعُه بشكل مُنتظم منذ تلك الحادثة، وقد نشأت بيننا علاقة علاجيّة متينة. لمّا عرفته، كان في حالة انطواء شديد، لكن الصّدفة التي شاءت أن تكون إحدى روايات سليم بركات مرميّة على مكتبي في ذلك اليوم، هي التي جعلته يخرج من عزلته الفُصاميّة ويتعلّق بي.

«لوعة الأليف اللاّموصوف المُحيّر في صوت سارماك» كان عُنوان الرّواية في حد ذاته تقليعة فُصاميّة. نزار قرأ العُنوان، ثم تصفحّ بعض الصّفحات، قبل أن يضع الكتاب على المكتب، ويقول، بصوت منهك، بأنّه كتابٌ صعب. ذلك اليوم دعوته للجلوس، وانغمسنا في حديث مطوّل، استأثرتُ أنا فيه بالكلام. ليس لأنّي كنتُ أريد ذلك، ولكن لأنّ نزاراً لم يكن يتحدّث كثيراً. مع مُرور الحصص، صار يتحدّث أكثر، وصار يرفع عينيه إليّ ويحدق في وجهي. كنتُ أراه مرّة كلّ أسبوعين. وكان يأتي في الموعد رفقة والدته. شيئاً فشيئاً عاد للمطالعة، مثلما كان يفعل قبل أن يحلّ به المرض.

صار يأتيني بملخص قصّة قصيرة أو رواية يقرؤها لنُناقشها معا، إلى أن جاء يوم قال لي فيه بالحرف الواحد: «لقد هزمتها العُزلة الشّرسة».

مكتبة الفكر الجديد

ثمّ علمتُ بعد ذلك من والدته بأنّه صار يُجالسهم في البيت ويُشاركهم مُشاهدة التلفاز، ويُحادثهم أكثر، وصار يَرغبُ في الخروج للتنزّه، وقد أراد ذلك أكثر من مرّة، إلاّ أنّها منعته لأنّه مريض حسب رأيها، ويُمكن أن يُصيبه أي مكروه إذا خَرجَ دُون رفقة.

في آخر حصّة رأيتُه فيها، كان نزار يرتدي نظارات سوداء ضخمة، خلعها ووضعها على المكتب بمجرّد أن صافحني وجلس. كنتُ تعمدتُ أن أُظهر له إعجابي بنظّاراته، وأنا أقول له بأنّها تليق به، فابتسم، وقال لي إنّه يرتديها ليحدّ من الأصوات المُقلقة التي يسمعها باستمرار. عندئذ قاطعتنا والدته وتدخّلت في خشونة، لتقول إنّه يرتديها كذلك في اللّيل، وهذا أمر سخيف، وأنّ المجانين وحدهم يفعلون شيئاً مماثلاً. لاذ نزار بالصّمت، وأخفض رأسه، بعد أن حدّق بي في يأس. قُلتُ لوالدته، بلطف، إنّه يرتديها لغرض آخر، يختلف عن الاستعمال العاديّ للنظّارات، إلاّ أنّها تبقى جسما عازلا يُعينه على التّقليل من تأثير أمر مّا سيِّئ. «أنت فهمتني دكتور» قال لي الولد بشبه ابتسامة، قبل أن يعود ويلوذ بالصّمت. لكنّ والدته احتدمت بغتة وقالت إنّها تقبل أنْ يكون ابنها مريضاً يتناول الدّواء، وتقبل بأن يتردّد على مُستشفى الرّازي، رغم كلّ ما سيقوله عنهم النّاس، لكنّها لن تقبل البتّة بأن نشجّعه على عصيان أوامرها والقيام بأشياء سخيفة لا يقبلها المنطق، ثم سحبته من يده وغادرت المكتب في غضب شديد، لتبقى نظّارات الولد مرميّة على المكتب مثل سلاح منزوع.

هذا الصّباح كان لي موعد مع نزار، لكنّه لم يأت.

مكتبة الفكر الجديد

انتهى

«يكفي هذا القدْر من العمل في الرّازي. هذه المرّة سأغادر نهائيا.»
كم مرّة قلتُها؟ وفي كلّ مرّة كنتُ أتراجع. حدسي كان يقول لي دائماً إنّ الأمور في الخارج يُمكن أن تكون أسوأ.

مكتبة الفكر الجديد

عن الكسر والهشاشة الانسانيّين

كنتُ أحسّ أن لا مفرّ من البكاء، لأنّه لم يكن في استطاعتي القيام بأيّ شيء آخر. أذكر أنّي بكيتُ آخر مرّة لمّا توفيت والدتي، وكنتُ في حال مثل هذا الصباح، غير قادر على القيام بأيّ شيء لأجلها. البكاء عزاء العين التي ترى عجزها. والدّموع، في انفلاتها الرّقيق، تنقذنا من اليأس المُطلق، لأنّنا حتّى ونحن مقيّدون، مكمّمون، مذلّون ومهانون، تبقى لدينا تلك القدرة الفذّة على تحرير الماء من أعيننا، وعليه، فإنّه ما من قوة في الكون يُمكن أن تحبس الدّمع المُنفلت؛ ماء وجه الانسان المقهور. كنتُ جالساً وحيداً على مقعد خشبيّ تحت ظلّ برتقالة بإحدى حدائق الرّازي. لا مرضى هذا الصباح أعايدهم، فاليوم سبتٌ. أحسستُ أنّي لا محالة باكٍ وأنا آتي على الصفحات الأخيرة من رواية شتاينباك، «عن الفئران والرجال». ليس أقسى على قلبي من رؤية أحلام الرّجال تتكسّر وتلويها المُقتضيات الجبّارة. وفي الرّازي، رأيتُ من القساوة ما يكفي لأن أبكي دهرا، ومع ذلك لم أبك. لأنّي كنتُ مهيّأ بمقتضى تكويني، وتجاربي، لاحتمال كلّ ذلك. كنتُ قد رأيتُ الضّبايا يُسقن إلى الزواج كما تُساق النّعاج إلى المسلخ، ولم أبك. ورأيتُ المراهقين يفشلون وينتحرون وقد ضاقت بهم انتظارات آبائهم وأحلامهم، ورأيتُ أطفالا يغتصبهم عمّ لهم، أو أب أو خال، ولم أبك. ورأيتُ عجائز

مكتبة الفكر الجديد

سَلب الخرفُ وقارهنّ، ورأيتُ شيوخا يعرضهم أبناؤهم على الفحص الذّهنيّ ويأخذونهم أمام القضاء ليُثبتوا عليهم عجزاً أو قصوراً حتى يرثوهم، ولم أبك. ورأيتُ الأطفال المُتوحّدين في توحّدهم، والفصاميّين في فصامهم، والمكتئبين في اكتئابهم، والمصابين بالايدز، والمُستسلمين لحتفهم من مرضى السرطان، والمشرّدين المنبوذين، ولم أبك. ورأيتُ الشبّان المُنتحرين، الحارقين أجسادهم، والفاتحين شراييهم، والمُتجرّعين مبيد الجرذان، والمرتمين من الشّبابيك والشّرفات، وأمام العربات، والمدمنين المُستنزفين، ولم أبك. ورأيتُ المُتخلّفين عقليّا، والقتلة السّفّاحين، والأمّهات الثكلى، والأرامل واليتامى، والرّجال المغدورين، والهاربين من الوظيفة، والهاربين من الخدمة العسكريّة، والهاربين من البيت، والبرصى، والقحاب، والمعوقين، والصّمّ والبكم، والعميان، والأمّهات العازبات، والرُضّع المتروكين في المُستشفيات على طاولات الولادة، وأمام صناديق القمامة، ولم أبك. ورأيتُ أعظم من طاقتي على الاحتمال. وهذا الصّباح أبكتني رواية. لَكَمْ تبدو بسيطة أحياناً أحلام الرّجال، ويا لامتناعها المرّ. إنّ ما أحسستُ به هذا الصّباح، ودفعني للبكاء، هو ذلك الانتماء الفظيع لأحلام الرّجال وعذاباتهم أينما كانوا. وهو أيضاً وقوفي على الكسر الرّائع الذي ننتمي إليه جميعا. والأدب الأميركي في عظمته، من عجوز «همينغواي»، إلى طريق «كيرواك»، وحتّى رجال «شتاينباك»، يبقى أدب «الكسْر» والهشاشة الأرضيّة الفذّة.

مكتبة الفكر الجديد

الفلاّح والقيامة

كان فلاّحاً في الخمسين. يملك قطعة أرض صغيرة بأحد أرياف الوسط التّونسيّ. يعتمد في ريّها على مياه الأمطار اعتماداً كاملاً. لم تمطر تلك السّنة. أمطرت في الشّمال وعلى السّواحل، لكنّها لم تمطر عندهم. الأرض تشقّقت من أثر الجفاف، وقطيع الشّياه الذي كان يملكه يكاد ينفَق، والكلّ في القرية أجمع على أنّها سنة زراعيّة كارثيّة.

قيل تلك الأيّام إنّ الرّجل شوهد في حقله أكثر من مرّة يُحدّث حماره الرّمادي، يلعن الأرض والسّماء، يلطم وجهه بكفّيه، ويُهيل التراب على رأسه ويبكي. زوجته قالت إنّه لم ينم ساعة واحدة طوال ذلك الأسبوع الذي سبق مجيئه إلى الرازي. وروت كذلك أنّه كان جمّ النشاط، كثير الكلام، يغادر البيت كلّ ليلة ولا يعود إلا عند ساعة متأخّرة، وأحياناً عند طلوع الفجر. قالت إنّه كان لا همّ له تلك الأيام غير الحديث عن المال والأعمال، ولا يختتم حديثه إلاّ لاعِنا الأرض والسّماء.

لم يكن له أبناء، فقد تزوّج أكثر من مرّة ولم ينجب. ولمّا أيقن أنّه كان السّبب، لأن إحدى طليقاته تزوّجت بعده وأنجبت، طلّق زوجته الرّابعة وعاد فتزوّج الأولى.

زوجته أكّدت أنه غادر البيت باكراً يوم الواقعة. وعاد عند الظّهيرة

مكتبة الفكر الجديد

يجرّ حماره الذي كان ظهره مثقلا بأخشاب طوال، لا أحد يعرف من أين جاء بها. أمضى بقيّة يومه في شحذ السّكاكين وصقل الفأس، وعند الغروب شرب كأساً من الشّاي، ثم صلّى، وحمل الفأس والسّكاكين وعبأها على ظهر الحمار، وغادر البيت.

رجال الحرس قالوا إنّ أول من سرّب الخبر لبقيّة أبناء القرية كان راعياً مرّ فجراً قرب حقل الفلاّح، وكان أوّل من تفطّن، مُصادفة، لما يدور هناك. راح أهل القرية يتقاطرون على الحقل تباعا، حتى النّسوة جئن مع أطفالهنّ، وقد رحن يتابعن ما يدور هناك من بعيد، وكلهنّ رهبة. الرّجال كذلك كانوا جزعين، وحتّى أشجعهم لم يتجرّأ على الاقتراب كثيراً. انتشرت التّأويلات بينهم سريعا، وكان أغلبها متشائما، وقد غذاها بأس ما كانوا يرون. أخيراً قرّروا مناداة الحرس الوطني ليأتي و يحسم الأمر، ويقيهم شرّ كارثة يرونها على وشك الوقوع.

جاؤوا سريعا. هم أيضاً ذهلوا لمّا رأوا ما رأوا. ارتبكوا بعض الشّيء، وتردّدوا في كيفية اقتحام الحقل. وزادهم في ذلك كثرة الشّائعات والتّأويلات التي تنامت لدى أهل القرية قبيل مجيئهم، وقد أعدوهم بها، وبثوا فيهم من جزعهم. أخيراً حسموا أمرهم واستلّوا أسلحتهم واقتحموا الحقل.

يُقال إنّ أوّل ما اعترضهم كان بركة من الدّم المتخثّر، تكاد تُكوّن مستنقعاً صغيراً، وقد تكاثف حولها عدد هائل من الحشرات. بعد ذلك عَرَض لهم أكثر من عشرين عمود خشبي مغروز في الأرض بالتوازي، لتشكّل ما يشبه الممرّ الذي يقود إلى داخل الحقل، وقد عُلّقت على كلّ عمود سليخة من الشّياه، حمراء، وكانت كلّها مبقورة البطون يتدلّى

مكتبة الفكر الجديد

فرثها. عندما بلغ رجال الحرس نهاية ممرّ السّلائخ اعترضتهم حفرة كبيرة ينبعث منها دخان أسود كثيف. كانت جلود الشياه المسلوخة مرمية هناك، تنهشها النار، تنبعث منها رائحة شواء غريبة. الدّخان الكثيف منعهم من أن يروا بوضوح ما يدور داخل بقيّة الحقل. جاوزوا الحفرة وتقدّموا أكثر، لينكشف لهم أخيراً ما يدور هناك.

رأوا قرابة الأربعين حفرة يصل عمقها إلى المتر، مستطيلة الشكل، محفورة بشكل متوازٍ، مصفوفة، كالقبور. كان ما أمامهم جبّانة حديثة الحَفر، لا ينقصها سوى قاطنيها ليأتوا ويرقدوا في سلام. الحقل صار جبّانة. شياه سليخة، حُفَرٌ، دخان ودماء، لقد اتّضح الأمر لدى رجال الحرس، وصدقت نبوءات الأهالي: جُنّ الفلاح، وهو يعدّ لمجزرة يأتي فيها على كلّ أهل القرية، من ثمّ يقبرهم في حقله.

بغتة لمح أحد رجال الحرس التّراب ينبعث من داخل أحد القبور. كان الفلاّح يضرب برفشه هناك، ويُلقي التّراب خارج القبر. تحفّز الرّجال، وراحوا يقتربون من القبر في حذر. الفلاّح لم يتفطّن إليهم، كان غائباً تماماً، منهمكاً في الحفر، وقد صارت الرّفش جزءا منه. ذلك ما ساعدهم على مباغتته، لأنّ أحدهم تسلّل خلفه ثم أهوى على رأسه بعصاه، بكلّ قوة، ليسقطه في الحال مغميا عليه.

أفاق الفلاّح في سيّارة الحرَس وهي في طريقها إلى الرّازي. كان مغلولا، فزِعا، لم يفهم سرّ ذلك الانتقال المفاجئ، ولا سبب وجوده بتلك السيّارة. كل ما كان يذكره هو أنّه كان يحفر، يحفر ويحفر، ولا شيء غير الحفر. ارتبك واختلط الأمر عليه. وكُلّما حاول الحراك كانوا

مكتبة الفكر الجديد

يرجمونه بالغاز المسيل للدموع، أو يضربه أحدهم على رأسه ليفقده وعيه من جديد. ولمّا بلغ الرّازي استقبلوه بحقنة عالجته تماما.

عرضوه على الطّبيب عندما هدأ قليلا، ووعى بمكان نزوله. بعد ذلك عرضوه عليّ لأجري له اختباراً نفسيّاً، وأتأكد من صحة مداركه العقلية، فحدّثني عن قصة القبور...

لم يكفّ الرجل عن الضّحك في ما يخصّ ما ذهب إليه أهل القرية ورجال الأمن من أمر القبور، وخوفهم من أن يرتكب مجزرة يذهبون ضحيّتها، و لم يكفّ عن نعتهم بالغباء والوحشيّة. وأقسم أكثر من مرّة بأنّه سيقاضيهم على ما ألحقوه به من أذى.

قال إنّ القبور استثمار، والشّياه الذّبيحة كانت ستنفَق بسبب الجوع والجدب، فقرر تقديمها قربانا، لتبارك السماء مشروعه. لقد أيقن أن الفلاحة صارت مهنة كاسدة، لاسيّما وأنّه لا يملك مالا كافيا ليحوّل أرضه إلى أرض سقويّة. وبعد أيّام قضّاها في التّفكير في كيفيّة إعادة استثمار أرضه بطريقة مبتكرة، أشرق ذهنه بتلك الفكرة الغريبة. قال لي إنّه قرر أن يستثمر في الموت. الموت عُملة لا تعرف الكساد. سيحوّل أرضه إلى جبّانة، ثم يؤجّر القبور. فمن يموت، يموت إلى الأبد، و يظل أهله وأحفاد أحفاده يدفعون كراء قبره إلى الأبد. كما يمكن لأهل الميت استئجار القبر لعدد محدّد من السّنوات، بعد ذلك يمكن تسريحه وتأجيره لميت آخر. وختم حديثه بأنّ أرضه ميتة لا محالة، وليس في وسعه إلاّ أن يجعل منها مقبرة، وليدرّ الموت مالا، وليعمّ الرّخاء.

كانت أغرب قصّة مجنونة شهدها القسم منذ أعوام. الفلاّح مكث في القسم قرابة شهر ونصف، تحت المتابعة «والعلاج»، ثم أُطلق سراحه.

مكتبة الفكر الجديد

لقد تذكّرته هذا الصّباح بعد أن جيء به إلى القسم، مرّة ثانية، ليلة أمس.

رجال الشّرطة جاؤوا به مرّة أخرى، وطلبوا إيواءه إجباريّا. يبدو أنّه أزعجهم كثيراً في الأيّام الأخيرة. لقد أمطر وزارة الدّاخليّة وكلّ الجهات الأمنية بوابل من الرّسائل، تحوي كلّها مطلبا واحدا: «طلب ترخيص لافتتاح مركز شرطة خاص»، ولمّا لم يعيروه انتباها، أخذ يتردّد عليهم ويطالبهم بتلبية مطلبه. نهروه أوّل الأمر، ولم يأخذوه على محمل الجدّ، ثم ضربوه حين ازداد إلحاحاً. ولمّا يئسوا منه تماماً جاؤوا به إلى الرّازي.

لقد قال لي قبل قليل إنّه يعلم أنّ قطاع الأمن في طريقه إلى الخصخصة. ويريد أن يكون من السّبّاقين إلى الاستثمار فيه. قال إنّه سيبيع أرضه ثم سيفتتح بعائداتها مركزاً للأمن، فالكثير من النّاس لا يأخذ لهم الأمن العمومي حقّهم، وهو واحد منهم، ووحدها خصخصة القطاع يمكن أن تتيح لهم ذلك.

مكتبة الفكر الجديد

تفووووووه

قبل قليل، داخل القسم، كانت رائحة غاز لاكريموجين لا تطاق. المرضى تفرّقوا في الأروقة والأطبّاء غادروا مكاتبهم. نوبات السعال لم تستثنِ أحدا. أذهلني ما لرذاذ الفلفل من قدرة على شحذ العيون والأنوف. وودت تلك اللحظة لو كنت غازاً مسيلاً أو ريحاً شيطانيّاً مُجنّناً. كنت الوحيد الذي أطربته رائحة الغاز على ما يبدو، وعالجت انسداد أنفه المزكوم.

سألت عن الأمر فقيل لي إنّ رجال الشّرطة أطلقوا الغاز الفذّ في وجه مريض جِيء به من السّجن للمُعايدة. يبدو أن السّجين المريض أو المريض السّجين بصق في وجه الطّبيب ثم في وجه الشّرطة وفي وجوه المرضى والممرّضين داخل الأروقة، ممّا دعا رجال الشّرطة الذين يقتادونه -مُوثق اليدين إلى الخلف- إلى رجمه بالغاز لتهدئته قبل أن يُرجعوه لعربة المساجين الرّابضة في مرآب القسم.

يا دين الرّبّ ! هل كنتم تنتظرون ممن يقبع مُداناً مُقيّداً في ظلام الحبس وراء الجدران الرّطبة شيئاً آخر غير البصاق على الوجوه ما إن تسنح الفُرصة للقيام بذلك؟

تفوووووووه.

تفوووووووه. تفوووووووه. تفوووووووه.

مكتبة الفكر الجديد

فضيلة البُصاق

إنّ بصقة واحدة من القلب. بصقة مُحكمة في وجه غريم أو عدوّ، يمكن أن تُغني عن ساعات وساعات من الهذر في عيادة المُعالج النّفسيّ.

مكتبة الفكر الجديد

قحبة

كانت تملكُ واحداً من تلك الأسماء الماكرة، من أخوات تقوى أو رحمة، والتي تجعلك ترغب بقوّة في مسك مؤخرتها أو قرص حَلْمتيها. ألْفَيْتُها دائماً «زعبانة» شديدة المرح، ولا أزال أذكر كيف تعارفنا. لمّا التفتت نحوي بغتة، وكانت تُغادر كفيتيريا المُستشفى، لتضبطني أتابع مشيتها المثيرة وأردافها الجميلة المحشورة في سروالها الجينز الضيّق.

«هائل»، كنتُ أردّد في خفوت، قبل أن أشيح بوجهي في سرعة. ابتسمتْ، وواصلتْ مشيتها المُتهتّكة، وأخالها سمعتني، لأنّ رِدفاها ازدادا شَدْوا مع كل خطوة، كأنّ راقها أنْ تضبطني مُتلبّساً في تلك الوضعيّة. رحمة. أو لحمة، كما كنتُ أحبّذ مناداتها، عمِلت معي بقسم «فرانز فانون» لستّة أشهر كطبيبة داخلية، قبل أن تنتقل إلى مستشفى آخر، كما هو الشّأن لدى الأطبّاء الدّاخليّين، وترجع مرة أخرى إلى الرّازي طبيبة مُقيمة بعد أن نجحت في مناظرة الأطبّاء المُقيمين.

هذا الصّباح صادفتها في الكفتيريا، وكنتُ لم أرها منذ سنة تقريبا، أي منذ مغامرتنا اليتيمة التي انتهت بفتور في العلاقة بيننا. لبثت معي أمام الكفتيريا لوقت قصير جدّا. في العادة نُقضّي وقتاً أطول. صُدمتُ لمّا رأيتُ الحجاب على رأسها وكنت بالكاد قد تعرّفتها. أحسستُ أن نظرتها تغيّرت. وجهها صار شاحبا، وكأنّ السّحر الذي كان فيها ذهب إلى الأبد. ثم تنبّهتُ إلى خاتم الخطوبة الذي كان في يدها اليُسرى، ففهمتُ

مكتبة الفكر الجديد

«كلّ شيء»، وحاولتُ ألاّ يبدو اندهاشي ظاهرا. كلّمتني بشيء من التحفّظ والحزن: أسلوب جافّ لم أعتده منها. ثم أخذت قهوتها وانصرفت متضايقة بعض الشيء.

لم ألْفِها هكذا. حتّى بعد تلك المغامرة الفاشلة لبثنا صديقين، وإن اقتصرت علاقتنا على قهوة سريعة نشربها وقت الاستراحة، نتبادل فيها المزاح والنّكات. حاولتُ عبثاً إلقاء نظرة وداع أخيرة على مؤخرتها الأسطورية، وهي تُغادر الكفتيريا، لكنّ عجيزتها المُنفجرة كانت مُتوارية خلف بلوزة المُستشفى البيضاء التي حجبت عنّي كلّ بروز.

أحسستُ بالأسى للحظة، ثم قرّرتُ أن أقبل بالأمر الواقع، وذهني يستعيد بسرعة ذكرى مُؤخّرة رحمة في أوّل إشراقها عليّ، وقد رحتُ أتذكّر الأحداث كما وقعت، أوّلا بأوّل، مُحاولا ترتيب الأمور كما سارت إلى حدّ الآن، وكلّ شيء يغدو واضحاً ومنطقياً في ذهني.

المصادفة الأولى أمام الكفيتيريا كانت مقدّمة للتّعارف بيننا. فقد اتّفقنا أن نلتقي آخر الأسبوع لنشرب قهوة بعيداً عن الرّازي. اللّقاء الأوّل كان خفيفا وسريعا، أسفر عن قبلات مُطوّلة تبادلناها داخل السيّارة أمام باب بيتها. أذكر أنّي دعوتها إلى بيتي الأسبوع الموالي للشّرب. اقترحتُ عليها عبر الهاتف أن نتقابل لنشرب قهوة، ثمّ نذهب بعد ذلك إلى بيتي للشّرب، وقد حاولتُ أن أغريها بزجاجة الجّاك دانيلز، التي أتاني بها أحد أصدقائي من إيرلندا. أذكر أنّها تحمّست للفكرة وقالت إنّها تفضّل أن نذهب مباشرة إلى البيت!

فتحنا المكيّف يومها فالجوّ كان حارّا، ومزجنا الويسكي بمكعّبات الثّلج، ورُحنا نشرب ونستمع إلى الموسيقى. لم تنتصف الزّجاجة بعد حتّى كنّا على السّرير نتطارح، وثيابنا تتطاير في كلّ الأنحاء. كنتُ أتلهّف

مكتبة الفكر الجديد

لقرص حَلْمتيها والإمساك بردفيها البارزين. ثم هممتُ أن ألجها لمّا شعرتُ بشيء من المقاومة، فقد ضمّت وركيها في تصلّب. حاولتُ من جديد، لكنّها صدّتني مرّة أخرى. مازلتُ أذكر كيف قمتُ عنها بأير مُنتصب وسارعتُ إلى جيب سروالي وسحبتُ واقيا ذكريّا، وقد ظننتُ أنّي فهمتُ سرّ امتناعها. لكنّها صدّتني مرّة أخرى! لم أفهم سبب ذلك، كُنّا قمنا بكلّ شيء تقريبا: من تقبيل، ولعْق، ومصّ، وسِرنا على مَهَل، فما المانع في أن نُتمّ الأمر إذا؟ هل هذه صحوة ضمير متأخّر، لأنّ لديها صديقاً آخر مثلاً؟

نظرت لي رحمة ذلك اليوم بارتباك، وقالت بتلعثم:

«أنا عذراء.»

طار ذلك بكلّ الويسكي الذي شربته!

كرّرتُ في ذهول:

«عذراء!!!»

أضافت بنفس الارتباك:

«أجل. عذراء!»

«لم أتوهّم إذا!»

وأضافت أنّها بالرّغم من كلّ ما أتينا، فهي «تريد أن تترك شيئاً لزوجها»!

أيري جفل وارتخى، وقد أصيب بانتكاسة. فتحتُ زجاجة الويسكي وأخذت أشرب منها مباشرة وبلا حساب، وأنا لا أصدّق ما سمِعت.

ما أزال أذكر كيف أشعلتْ سيجارة وقرفصت على جانب السّرير عارية وقالت: «المحافظة على العذريّة حتى الزّواج، مبدأ من مبادئي

مكتبة الفكر الجديد

التي لن أتخلّى عنها أبدا، إلاّ أنّ ذلك لم يحرمني يوما من المتعة الجنسيّة لأنّ هناك ألف طريقة لإدراك اللّذة دون الاضطرار إلى الإيلاج. أليس كذلك؟»

«آه! بالطّبع، بالطّبع، دون الاضطرار إلى الإيلاج»، كرّرت، متجرّعاً كمّية كبيرة من الويسكي!

«هل عِندك زيت؟» سألتْ.

«ماذا؟!!» يومها ظَننتُ أنّي لم أسمع جيّدا.

«أعني أنّك يمكن أن تأتيني من الخلف!» قالت في فسق. «هذا بالطّبع، إنْ كُنت تُريد فِعلها من الخلف! هل عندك زيت، أو أي شيء يُعين على الانزلاق؟» عادت تسأل.

عدتُ أنظر إليها في ذهول، ممّا زاد في ارتباكها.

قالت إنّ المضاجعة من الخلف آلمتها أوّل الأمر، ثم اتّسع ثقبها، وصارت لا تُحبّ غيرها، لأنها تعوّدت على ذلك...

أحسستُ ذلك اليوم بأنّي إمّا آخر العقلاء أو أوّل المجانين، وقد قرّرت أن أكون أكثر عبثيّة منها. فأثنيتُ على مبادئها، وطرحتها ووجّهتُ مؤخرتها نحو أيري الذي عاود الانتصاب من جديد. طاوعتني في مرونة لكنّها قالت وأنا أهمّ بدفعه في استها:

«والزّيت؟!»

فما كان منّي إلا أن بصَقتُ في ثقبها، وقلتُ ثم أقحمته بكل غِلّ:

«هذا أفضل من الزّيت.»

مكتبة الفكر الجديد

البوللّو

«دُكتور، دُكتور.»

التفتُّ إلى المُنادي القادم من آخر الرواق، وكنتُ أهمّ بالدّخول إلى مكتبي بعد انتهاء اجتماع القسم الأسبوعي.

«دُكتور، دُكتور، هل توصّلتم إلى حيلة للإيقاع به؟»

«الايقاع به؟» كرّرت.

«أجل، الإيقاع به. ألستم تجتمعون كلّ خميس لإيجاد طريقة للنّيل منه؟ هل عثرتم أخيراً على وسيلة للتّخلص منه؟» سألني لُطفي، أحد مرضى القسم.

«لسنا نجتمعُ لهذا الغرض يا لُطفي، بل للتّشاور حول أحوال المرضى وشؤون القسم.»

«حتّى عُلماء «النّازا» لم يعثروا على طريقة لقتله. كنتُ مُتأكّداً من أنّكم لم تتوصّلوا إلى شيء. لكنّكم لا تُقرّون»، قال لُطفي، وهو يحدجني بجانب وجهه الأيمن، مُتحاشيا المُواجهة المُباشرة.

«قتلُ ماذا؟» سألته مُبتسما.

«البوللّو»، أجاب ودنا منّي بمشية جانبيّة عرجاء، تُشبه مشية سرطان البحر.

مكتبة الفكر الجديد

«البوللّو؟ !!»

«أجل، البوللّو !»

«وهل يعرفُ لُطفي كيف يموت البوللّو؟»

«اِخفض صوتك. قد يسمعك البوللّو ويأتيك ليلا ليفترس زُبّك. أنت تعرف أنّه يفترس زبّ كل من يتلفّظ باسمه ثلاث مرّات تباعا.» ثم اقترب منّي أكثر ليُضيف مُقايضاً:

«لو أخبرتُك كيف يموت، كم ستدفع؟»

«!!!»

«هيّا. أيهون عليك زُبّك؟»

تظاهرتُ بدراسة الاقتراح، ثم قلتُ بعد تفكير:

«ربّما... قهوة وعُلبة تبغ.»

«قهوة وعلبة تبغ»، كرّر لُطفي موافقا.

ثمّ دنا مني بمشيته الجانبيّة حتى أوشك أن يلتصق بي. ووشوش في أذني:

«قتله ليس صعبا... لكن يجبُ أن تعثروا على جُحره أوّلا.»

«!!!»

«يجبُ مُباغتته عند العشيّ لمّا يكون نائما. البوللّو يُميته بولُ الأنثى. أنثى البشر. شرط أن تكون عذراء.»

«!!!»

«تبرُك عذراء على جُحره عند العشيّ. ثم تبوّل في الحُفرة وتبتعد سريعاً. لن يمضي بعدها وقت طويل حتى يخرج البوللّو من جُحره

مكتبة الفكر الجديد

مُترنّحا، وينطرحُ على الأرض ويلفظ أنفاسه ويموت. بعد أن يكون البول قد أسقط كلّ وبره. البوللّو لا يقدر على العيش دون وبر»، أضاف وتراجع خطوة مُبتعدا، وأنا لا أكتم ضحكة أفلتت منّي. لأغادر القسم نحو كفيتيريا المُستشفى وأحضر القهوة وعُلبة التبغ.

مكتبة الفكر الجديد

معتوه في الرّازي

لست مجنونا، وإن كنت أودّ أن أكون كذلك. كنتُ المعتوه الوحيد الذي درس علم النّفس ظنّا منه أنه سيصبح مجنونا. وها أنا اليوم، نفسانيّ، أي على النّقيض تماماً من حُلمي.

مكتبة الفكر الجديد

وحش

هُناك، قُرب الكافيتيريا، على مِصطبة إسمنتية تمرّ تحتها أنابيب الصّرف، جلس «أروع رجل يأكل»، وجلستُ حذوه، أحتسي قهوة بلا طعم.

طرح كيس البلاستيك على المصطبة ثم قرفص مُحمجِماً، ماطّا شفتيه، مُتلمظّاً، رافعاً حاجبيه وشفتَه العُليا، مُنتشيا ككبش شمّ بوله للتّوّ. مزّق لحم الكيس بأظافر خشنة، سوداء، ليكشف بوحشيّة عن دجاجة مصليّة، ورائحة اللّحم الماكرة تُثيره وتزيده ضراوة. لا أحد في العالم كان يقدر على انتزاع تلك الوليمة منه، وهو يكبش الدّجاجة ويرفعها أمام وجهه بيد مُرتشعة، ليسيل زيتها الأصفر على كوعه ويبلغ المرفق. بغتة ألقاها على المصطبة مُطلقاً خواراً غاضباً، لتتناثر البطاطا المقليّة وحبّات الزّيتون المحشوّة فيها. أولج فيها يداً مسعورة ليُخرج ما تبقّى في جوفها ويرميه، ثم رفعها من جديد ويده داخلها. قرّبها من أنفه وتشمّمها. يده ترتعش. عيناه تنبضان، تجحظان وتغوران، تدوران في حَوَل بديع مُتناسق الحركات. تُريدان الدّجاجة، تُريدانها. تفترسانها بأنياب التحديق.

انتزع العنق بفمه وأخذ يمضغه طاحنا العظم، مُستمرئا. بلع اللّقمة ورفع من جديد إلى فمه الدّجاجة التي صارت امتداداً ليده. يُنشب فيها

مكتبة الفكر الجديد

أسنانه، ينهش لحمها، ويده ترتعش وهي ما تزال محشورة فيها. أنزلها عند بطنه ثم انكفأ عليها بجذعه ليحميها. وأخذ في مضغ بطيء، مُتلذّذ، يُغمض له عينيه من حين لآخر، لتُعاود يدهُ الرّعشة وهو يستعدّ لنهشة أخرى. في صبر، مثل سمكة بيرانيا مُثابرة، راح يمحو لحم الدّجاجة عن عظمها، ليبيضّ هيكلها العظميّ وتصير قُفّازاً ليده.

جاء الدّور على العظام. قضم الواحد تلو الآخر. عظام الأجنحة أوّلا. ثم عظام الفخذين، فالصّدر. آخذا في سحقها ومضغها في بطء وعناية. قعقعت العظام مُستجيبة لقوة الأضراس. باحت بنُخاعها مُذعنة للطّحن، لتُكرم بنفس مصير اللحم.

لا أحد أكل قبله ولا أحد سيأكل بعده. أكل بجوع الأجيال، بجوع اللحم للّحم. أكل كما يجب أن يُؤكل. كما يجب لدجاجة أن تُؤكل وتُكرم. كان يُضاجع وهو يأكل. كان يقتل وهو يأكل. كان يُحبّ وهو يأكل. كان ينحت وهو يأكل. وكان يُؤكل وهو يأكل... لم يمض وقت طويل حتى اختفى كلّ أثر للدّجاجة. والرّجل يلحس أصابعه وكوعه بلسانه الأحمر، الطويل، مُغمضاً عينيه، مُطلقاً حمحمة مُتقطّعة. ثمّ ما إن أنهى الأكل حتى انتصب على المصطبة يضرب بيديه كأنّهما جناحان، نافشاً ريشاً موهوماً، نافخاً صدره بالهواء، مادّاً عنقه، ليصيح بقوّة كالدّيك:

كوكّو ريكّوووووووووووووووووووووووووووووووووو.

مكتبة الفكر الجديد

«اسْتِمْنَاء قهري»

أغلقتُ الملفّ الطبيّ على تلك الجملة الأخيرة، ثم رفعتُ بصري إلى الشّاب الجالس أمامي. كان عظيم الجثّة، كثيف اللّحية، بشكل يصعب معه التّصديق بأنه في السّابعة عشرة من عمره. عاينه الطّبيب النفسيّ مرّتين قبل أن يبعث لي به، ولم يحتفظ سوى بالتّشخيص التّالي: «استمناء مفرط». مع بعض الشّكوك، في أن يكون ذلك السّلوك المرضي مقدّمة لذهان، أو لشيء آخر لم يتبيّن بعد.

كان وافداً حديثاً على القسم. جاءت به أمّه إلى الرازي قسرا، بعد أن استنفدت معه كل السُّبل ليتوب عن صنيعه. كان يستمني بين خمس وعشر مرّات في اليوم. لم يترك شيئاً إلا وجعله موضوعاً للاستمناء؛ حتى أمّه. تقول إنّها فوجئت به يُطِلّ عليها عبر فرجة الباب، وهي تستحمّ. لم يسلم منه أحد في الحيّ، بما في ذلك القطط والكلاب! استمنى على بعض صِغار الحي. استمنى على نشرة الأحوال الجويّة، على الإشهار، وكلّ ما كان يبثّه التلفاز. طردوه من المعهد بسبب الاستمناء على الأساتذة، وعلى زملائه في الصّف. كان يملك معطفا ضخما مثقوب الجيب، وكان يمدّ يده عبر جيب المِعطف ليمررها عبر جيب السروال المثقوب كذلك، ويستمني.

استمنى في البحر. استمنى واقفا. استمنى ماشيا. كان يختار فتاة في

مكتبة الفكر الجديد

الشّارع بارزة الإست ثم يتعقبّها مُستمنيا. قال إنه تعثّر وسقط على الأرض مرّة لمّا ارتخت ركبتاه ساعة الإنزال. استمنى على أبكم الحيّ. استمنى على نفسه. استمنى على أصُصِ الزهور. يصعد أحياناً في ليالي الصّيف المُقمرة فوق سطح منزلهم ليستمني على النّجوم والبدر. استمنى على الحاسوب. استمنى على الطائرات في السماء. استمنى على القطار. واستمنى على القبور.

قال للطّبيب منذ قليل إنّ نزوله بمستشفى الرّازي فرصة لا تعوّض ليستمني على المجانين، فكلّ شيء عنده قابل لأن يكون موضوع استمناء. سألته إن سبق وجرّب العلاقات الجنسيّة: فقال إنه جرّب كل شيء: النّساء، والرّجال، والأطفال، وحتى بعض الحيوانات والنّباتات. لكن لاشيء عنده يُضاهي الاستمناء! فهو لا يرضى أن يكون «فرحه» معقوداً «بيد» غيره، فلا أحد «يفهمه» مثلما «تفهمه» يده. قرّرتُ أن أجري له اختباراً في الشّخصية، ثم رحتُ أشرح له قواعد الاختبار، مُرتّبا ألواح اختبار «رورشاش» الإسقاطية، عندما قاطعني ساخرا:

«هل هذا مضادّ استمناء؟» ثم اختطف ثلاثة مناديل ورقية من علبة الكرتون الزرقاء على المكتب، ودسّها في جيبه. أتْمَمْنَا الاختبار دون مشكلات، لينصرف صحبة والدته على أن يعود في الموعد القادم بعد أسبوع. غادرتُ خلفه المكتب متجها نحو مكتب زميلي الطّبيب، مُعرّجا بعد ذلك على الكفيتيريا. نتائج الاختبار كانت واضحة، وتشير إلى دخول في الذّهان. لمّا عدتُ إلى مكتبي طالعتني رائحة مَنيّ نفّاذة. نظرتُ أسفل المقعد حيث كان المريض جالسا، كانت المناديل الثلاثة التي سحبها قبل قليل ملقاة على الأرض، مكوّرة، مبلّلة.

يبدو أنّه استمنى عليّ أنا كذلك.

مكتبة الفكر الجديد

Parkizol

ورّقت الطّبيبة المُقيمة، بعجالة، الملفّ الطبيّ للمريض الذي دخل المكتب وجلس قبالتها، دون أن ترفع بصرها نحوه. كانت مرهقة، إثر يوم شاق، أتت فيه على طابور طويل من المرضى الذين اصطفّوا أمام مكتبها لتجديد وصفاتهم الطّبيّة. أحسّت خوفا راح يتعاظم وهي تطالع بيانات المريض، ذي السّوابق العدلية المتكرّرة، ملقية نظرات مختلسَة على ذراعه المبسوطة على المكتب بشكل فجّ، عاجزة عن عدّ النّدوب التي مزّقت لحم يده اليسرى من المعصم حتى أعلى الذراع. بين النّدبة والنّدبة كانت هناك ندبة، فوق النّدبة ندبة؛ «شلطات» من شفرات حادّة، مزّقت حتى الوشم الأخضر على الذراع السّمراء، مشوّهة ملامحه إلى الأبد. اليد اليمنى لم تسلم كذلك من النّدوب، والوجه الكالح أيضاً. هذا إلى جانب أنّ للرّجل رائحة عرق نفّاذة زادت من تقزّز الطّبيبة وهي ترفع بصرها نحو وجهه، أخيرا، -بعد أن مسحت بسرعة سيرة ثلاث سنوات من المتابعة في الرّازي- ليزداد ذعرها، وهي ترى السّحنة المنذورة للشّقاء. كان شهرها الأوّل في القسم، والمريض مريضها الأخير؛ وقد تعمّد التأخر في الصّف، حتى يفرغ الرّواق، ويختلي بها. قبل أن يدخل، كانت تستعدّ لتجديد الوصفة في عجالة، ثم تمضي للفطور مع خطيبها.

مكتبة الفكر الجديد

ردّ على أسئلتها باقتضاب. قال إنّه لا ينام جيّدا. كثير التوجّس والحذر. سريع التّشنّج. يرى خيالات سوداء في اللّيل. وذهنه شديد الانشغال، لا يكاد يتوقف لحظة عن الاشتغال. لم تتجاوز المقابلة الدّقائق الخمس، راحت الطّبيبة على إثرها تخطّ الوصفة الطبيّة. كان الارتباك باديا عليها وهي تُفلت الختْم من يدها ليسقط على الجهة الأخرى من المكتب. التقط الرّجل الختْم ببطء، ثم وضعه أمامها بيده الشّوهاء، دون أن يرفعها، لثوانٍ قليلة، مرّت كالدّهر، قبل أن يسحب يده بنفس البطء. شكرته بتلعثم، ثم ذيّلت الوصفة بتوقيعها ووضعت عليها الختم، وناولته إيّاها وراحت تضع أغراضها في حقيبتها بعجالة، كيفما اتّفق.

«ما هذا؟» قال الرّجل في احتقار، وهو يلقي الوصفة بخشونة على المكتب. «هذا ليس دوائي، أين الباركيزول؟» أضاف بصوت أجشّ عليه ندوب.

«الباركيزول ليس دواؤك. هذا هو الدّواء الذي يلائمك»، قالت في حزم لم يخف ارتباكها.

«هل تعرفين أفضل منّي الدواء الذي يلائمني؟» قال في حدّة. «هالدول» وباركيزول؛ هيّا، خلّصينا، هذه ليست المرّة الأولى.»

عادت الطّبيبة تتصفّح الملفّ، وهي تتذكر تعليمات رئيس القسم المشدّدة، حول عدم التّساهل في إعطاء حبوب الباركيزول المثيرة.

يقوم الباركيزول لدى بعض المرضى مقام عُشبة الكوكا المقدّسة لدى شعب المايا؛ حبّة بيضاء بحجم العدس، أو أقلّ، ذات مفعول حيويّ عظيم. الباركيزول هِبة مرض باركينسون، قبل أن ينزل للسّوق السّوداء،

مكتبة الفكر الجديد

ويصير ترياقاً لكل آلام الحياة. الباركيزول من مُحييات الحياة -لهذا صار تجارة- كإخوته: الأرطان، الترونكسان، الايكوانيل، المورفين، الفاليوم، والأكينيتون؛ وصيف الباركيزول، دون أن يضاهيه في المفعول والقدرات. الحبّة بخمسة دنانير، النّصف بثلاثة، والرّبع بدينارين، باختلاف العرض والطّلب. يأخذ المريض وصفة عليها الهالدول والباركيزول، يلقي بالهالدول ما إن يخرج من الصيدلية، ويحتفظ بالباركيزول العظيم. الهالدول، مضادّ من مضادّات الذّهان الكلاسيكيّة. دواء يُفقد العنفوان، يسبّب تصلّبا في الأطراف، اعوجاجا في الظّهر، يجعل بصاق المريض يسيل من فمه دون أن يملك القدرة على إيقافه، يُفقد الرّغبة الجنسيّة، يقتل الانتصاب، ويجعل الشّخص مُعْرضاً عن كلّ شيء... الهالدول، يقضي -في جملة ما يقضي- على كلّ علامات الحياة؛ نقمة من نِقم الكيمياء على الذّهان، ولهذا يعطونه مرفوقاً بالباركيزول، تكفيراً عن ذنب صيدليّ لا يُغتفر.

لا تعلم الطّبيبة -حديثة العهد بالرّازي- أنّ المريض الجالس أمامها يحتاج إلى الباركيزول حاجتها إلى الماء والغذاء. ثلاثون حبّة في الشهر، أو ستّون، لو ابتسم الحظ، يبيع نصفها ويستهلك النّصف الآخر. عْلي بن عزيزة، ما كان ليحتاج الباركيزول لو كان أقلّ سنّا بعشر سنوات من الآن. في إيطاليا، التي هاجر إليها خلسة مرّتين، قبل أن يعود منها مطرودا. جرّب الكوكايين، والهيروين، والماريخوانا، والكْراك، وغيرها من المخدّرات. كان يعفّ عن الباركيزول أيّام الفتوّة، لكنّه اضطرّ إليه اضطرارا، حين دخل السّجن لخمس سنوات متواصلة. هناك، حيث يوزّعون الباركيزول والأرطان على المساجين، استهلك عْلي أوّل حبّة باركيزول، لأنّ حيطان السّجن، لم تكن تكفي وحدها لإخماد الطّاقات

مكتبة الفكر الجديد

الشّابّة المهدورة، كان يمكن أن تنهار الحيطان، لولا تواطؤ الحبس والكيمياء، على احتواء اندفاعات الأجساد التي سقطت من حسابات وبرامج من يصنعون مصائر الناس.

غْلي بن عزيزة كان فتوّة من الفتوّات؛ «خليقة، فْصالة، باندي...»، كما شاء له خيال التّسميات في العامّية التونسيّة. ذهبت الفتوّة، ذهبت الهيبة، ذهب العنفوان، والرّجل يدخل سنّ الأربعين، التي قضّى منها ثلاث عشرة سنة في الحبس، ليستفيق أخيراً ويجد نفسه بلا عمل، بلا مستوى، بلا كرامة؛ بلا أيّ شيء، وإلى ذلك ففي عهدته زوجة وأبناء ورّطه فيهما رضاء الوالدين، حين عاد من إيطاليا بعد «ربطيّته» الأخيرة. من ايطاليا، رجع في سنّ الثلاثين، قضّى على إثرها ثلاث سنوات طليقا، تزوّج خلالها وأنجب بنتين، مريم وهيفاء، قبل أن يعود إلى السّجن بعقوبة خمس سنوات، ويخرج منه بجسم نحيل مُتهالك، وبصر ضعيف، واكتئاب، ومرض السّكري، وهو بعد في الثامنة والثلاثين. غْلي بن عزيزة عرف أنّه انتهى حين نُكّل به في معركة مع «خليقة» آخر ما يزال في أوج العنفوان. ما قتله، ليس كونه تلقّى ضربا مبرحا، وإنّما الإهانة التي لحقته بعد أن أشاع غريمه أنّ غْلي صار لوطيّا في السّجن، تهمة هو براء منها كما يقول، لكنّها وجدت رواجا في الحيّ الذي يقطنه؛ نقمة الأشقياء في ما بينهم، لا يرحمون بعضهم بعضاً. كان يمكن لغْلي أن يَطعن غريمه ويعود إلى السّجن، ويغسل شرفه من كل الإهانات التي لحقته. ليس الخوف ما منعه، وإنّما مسؤوليّته أمام بنتيه اللّتين كان يحبّهما حبّا مجنونا، ويخشى عليهما من مصير مجهول في غيابه، كما أن غْلي، لم يعد يثق في قدرته على احتمال ظروف السّجن القاسية. «خليقة مكسّر»، هذا ما انتهى إليه علي بن عزيزة وهو يلج سنّ الأربعين. ولكن، الباركيزول...

مكتبة الفكر الجديد

كان الباركيزول بالنسبة إلى عْلي ذلك اليوم مسألة حياة أو موت. إمّا الباركيزول وإمّا الجوع. إمّا الباركيزول وإمّا كلّ هموم الدّنيا على رأسه. الباركيزول يمنحه ثقة ونشاطا؛ حيويّة فقدها بسبب الأمراض، وما خلّفته سنوات السّجن والفتوّة من دمار على جسمه. لم يبق لعلي من البراعات، في عُرف الفتوّات، غير الحيلة والدهاء. سرعة البديهة مقابل سرعة اليد في تسديد اللّكمات. كان عليه أن يتحاشى الدّخول في مواجهات مباشرة، واحتمال الإهانات أحياناً، وخاصّة استعمال الحيلة لكسب المال. استعاد بعضاً من وزنه، وصار يرتدي ثياباً خشنة، لكنّه لم يسترجع خفّته أبدا. كان يعوّل على مظهره وماضيه في فرض نفسه؛ إيهام بالقوة، هيبة استعاد بعضها بعد أن كان يفرضها بقوة اللّكمات. كلّ ما يحتاج إليه هو تلك الوصفة القحبة التي يجب أن يحصل عليها بأي ثمن. ستّون حبّة باركيزول، كِفاية شهر، وإلاّ سيمكث فريسة للجوع والخوف. يستعمل حبّتين في اليوم، إلى حين يأتي الموعد القادم، ليتزود بحبوب الحياة. لم تكن الطّبيبة تعلم أنّ علي يستهلك حبّة، ويبيع أخرى يشتري بثمنها علبة تبغ وقهوة، وما يتبقّى، فهو لصحن «الكفتاجي»، فطوره. حبّة الباركيزول التي يتناولها مع القهوة صباحا، تعيد له الثقة بنفسه، وتقلّص خوفه من غريم مجهول قد ينقضّ عليه في أيّ لحظة. الباركيزول يعيد إليه توقّد الذّهن، والقدرة على الاحتيال، والمراوغة، صفتان يحتاجهما كل من قرّر كسب رزقه من سوق «زَرْقون» السّوداء.

الطّبيبة لا تعلم كذلك أنّ عْلي يقف كل صباح في مدخل سوق «زرقون»، يرقب الدّاخل والخارج، يضبط الأمور، يترصّد الفرص، ويتوسّط لبيع المتاع المسروق: كالعملات الأجنبية، والباركيزول،

مكتبة الفكر الجديد

والفياغرا المهرّبة، وأقراص الأفلام الإباحيّة، وبخاخات غاز لاكريموجان، وغيرها من الممنوعات والمسروقات. كان يبيع كلّ شيء تقريباً، عدا حُقن الإيدز. حُقن الإيدز التي كان يعفّ عن بيعها، رغم الإقبال الكبير عليها، هي أبعد ما وصل إليه خيال الانتقام، الذي عرف عند «ولد وْرِيدة» أوج اكتماله. «ولد وْرِيدة»، الذي باع مَنيّه في إيطاليا، اكتشف بعد عودته منها أنّه مريض بالإيدز، ليوحي له خيال الانتقام فكرة بيع دمه الملعون، في جرعات تُسحَب طازجة من عروقه ثواني قليلة قبل أن تُغمد في جسد الضحية. لكلّ من يرغب في الانتقام من فتاة خانته، أو رفضته، لكل من يرغب في الإجهاز على غريم؛ حقنة إيدز غادرة من دم «ولد وريدة»، هي موت رخيص مضمون. موت بطيء لا تزيد كلفته عن الخمسة والعشرين دينارا، هي كلّ رجاء «ولد وْريدة» من دمه الملوّث، منذ أن كان نطفة.

تتذكّر الطّبيبة تعليمات رئيس القسم المشدّدة حول عدم التّساهل في إعطاء الباركيزول، ليزداد توتّرها وهي تطالع الملفّ مرّة أخرى. الرّجل لم يكن يكذب. الملفّ يشير إلى أن أحد الأطباء كان يصف له الباركيزول، لكن حسّها العيادي يقول إنّه لا يحتاجه. كانت في مأزق. إنّها تعلم أنّ هذا الصّنف من المرضى، «السايكوباث»، أمثال علي، يمكن أن يصبحوا عنيفين، ولا شيء يردعهم. لقد قرأت حولهم صفحات علميّة طويلة، كانت مُجحفة في حقهم، صفحات قاسية- لم تتغيّر، وصَمَتهم بالسّوء والسّلب، مذ ضبطت طباع البشر في جداول عياديّة.

«الإدمان على الباركيزول يمكن أن يتسبّب في مشاكل صحيّة كبرى»، قالت الطبيبة وهي تلجأ إلى الحيلة، في سعي أخير لإثناء عزم المريض عن طلب الباركيزول.

مكتبة الفكر الجديد

«لم يبق في هذا الجسد شيء سليم يستحقّ أن أحافظ عليه، خلّصينا يا دكتورة»، قال الرّجل مشيراً إلى رزمة الوصفات الفارغة في نفاد صبر.

«صدّقني، الإدمان على الباركيزول يمكن أن يُسبّب تلف الذاكرة.»

«فليذهب الباركيزول بالذاكرة»، صاح الرجل. «ليس في هذه الرأس اللعينة ذكريات تستحق الحفظ. هاتي النّسيان يا دكتورة، هاتيه حالا.»

«ولكن...» قالت الطّبيبة، ولكنّ المريض قاطعها في انفجار:

«لا تحرمونا من الباركيزول يا ربّكم. أتركوا لنا ما يجعل الحياة مُمكنة، ما يجعل الحياة قابلة للاحتمال.» ثم أردف في غضب:

«لقد أخذتم كلّ شيء، فاتركوا لنا ربّ الباركيزول.»

«ولكن الباركيزول يمكن أن يسبّب لك الأهلاس والأوهام، ويجعلك غائبا عن الواقع.» قالت الطّبيبة وقد عاودها الرّعب من لهجة المريض العنيفة.

«يا ربّ الواقع، أيّ واقع يُمكن أن يفوتني؟ ليس لأمثالي نصيب في شيء. أنتم أخذتم الوجوه الجميلة، والسّيارات الجميلة، والمنازل الجميلة، والوظائف الرّائعة، فاتركوا لنا الباركيزول. أُتركوا لنا الوهم»، قال المريض، وقفز يحول بين الطّبيبة وباب المكتب، وقد حاولت التملّص والهروب. تراجعت الطّبيبة في رعب ليصطدم ظهرها بالحائط، والمريض يقترب منها بوجه ينضح كراهية.

«أكرهكم. أكرهك أنتم الأطبّاء، ورجال الشّرطة. لا تضيّعون فرصة لتردّدوا على مسامعنا أنّنا مرضى، ومجرمون، لا نصلح لشيء. تدمّروننا بالسّجن. تدكّوننا بأدوية تسرق منّا حيويّتنا، وتجعلنا كمريض السّرطان في أيّامه الأخيرة، يذبل ويموت في صمت.»

مكتبة الفكر الجديد

«لا تقترب أكثر»، صاحت الطّبيبة والمريض بات قيد خطوتين منها.

«هاتي الباركيزول إذا. هاتيه حتّى أقف في السّوق، حتى أصبح رجلا.»

يدنو عُلي من الطّبيبة خطوة أخرى، يسحب شفرة حادّة من جيبه في خفة. تصاب الطبيبة بالهلع وهي ترى لمعة الحديد البارد. ترفع يديها لتحمي وجهها وتأخذ في صراخ حقير. لكن عُلي، لم يكن مستعدًا للرجوع إلى السّجن ذلك اليوم. لو كان أقلّ سنًا من الآن لبصق على الأرض وأكره هذه القحبة الصّفراء على لعق بصاقه وتقبيل حذائه. لولا خوفه على بناته لفتّح بشفرته فرْجا على وجه الطّبيبة، وألبسه نظّارات. لكن عُلي سيكتفي اليوم بتمزيق ذراعه. بحركة لا يتقنها غير عازفي الكونترباص المَهرة، مزّق لحم ذراعه. ذبح اليسرى باليمنى، في عزف دموي بالشفرة على أوتار العروق. عزفًا أليمًا كان الدّمُ. الأحمر الغالي نزّ رذاذاً، حيْرةً، مُكرّراً أبداً، لوعةً، في كلّ مرور للشّفرة على اللّحم. الطّبيبة تصرخ، وعلي يضرب بالشفرة على ذراعه، والدّم رقشٌ على البلوزة البيضاء. الدّم على وجه الصّفراء، الشّفرة في يد علي، والعزف يحتدمُ. الدّم على الحائط الأبيض. الدّم على الأرض. الدّم على الدّم. ينهار عُلى وتُفلت الشّفرة من يده. يتهالك على الطّبيبة. يتعلّق بلباسها. يصيح في توسّل أخير: «باركيزول يا دكتورة، باركيزول، بربّك، حتى أقف. باركيزول حتى أصبح رجلا. يا دكتورة، باركيزول، باركيزول...»

تكاد الصّفراء تنزلق على الأرض وهي تدفع الرّجل الذّبيح بقدميها واطئة دمه. تركض خارج المكتب وحقيبتها بين يديها. يعترضها الممرّضون في وسط الرّواق، وقد تفطّنوا، أخيرا، إلى الصّراخ

مكتبة الفكر الجديد

والضّوضاء. يأخذ بعضهم الطّبيبة لتغسل جُرمها وقد نزعت بلوزتها في الأثناء وراحت تمسح بها وجهها الأصفر. يزدحم المكتب بالممرّضين، وقد لحقتهم مساعِدة رئيس القسم، ليتحوّموا، جميعهم، حول الرجل الغارق في دمائه وهذيانه بالباركيزول. تأمر الطبيبة المُساعِدة برتق جراح الرجل، وهي تعينه على الوقوف، مادّة نحوه ذراعها. ينهض غْلي بصعوبة، ليأخذه الممرّضون إلى قاعة الإسعافات. تطلّب الأمر ساعة لرتق الجراح ووضع الضّمادات، أخذ الممرّضون غْلي عَلى إثرها إلى مكتب الطّبيبة المساعِدة، كما أمرت. الطبيبة ذات العينين نصف النّاعستين، تعرف السرّ المُضمَر في الحبّة البيضاء. يسقط رماد التبغ من السيجارة التي لا تكاد تفارق فمها المزرورق الشّفتين، وهي تخطّ له كفاية شهر من الحيلة والحيويّة المجبولة أقراصا. يصافح غْلي الطبيبة وهو يقبض على الورقة الثّمينة وينهض ليغادر المكتب. شهر للحياة يا غْلي. شهر لتلتئم الجروح. شهر آخر قبل سيمفونية الدّم المُقبلة. يشعل الرجل لفافة تبغ وهو يغادر قسم «ابن الرّاوندي»، متوجّها إلى صيدلية المستشفى، حاملا وصفة عليها ستّون حبّة من الباركيزول، استحقّها عن جدارة. وصفة، ليست ككلّ الوصفات، ممهورة بالدّم، ختم الأختام.

مكتبة الفكر الجديد

Anùsa

كنتُ في مأزق.

أحدهم كان يطرق باب المكتب في إصرار، بينما أنيسة، تجلس قبالتي منتفخة العينين من أثر البكاء، تحدّق، غير مُصدّقة، في خاتم خطوبتها الغارق في المنيّ، بعد أن قذفتِ في يدها. لزوجة السائل الرّجراج جعلت الخاتم يزلق خارج اصبعها في يسر ما إن جرّبت نزعه. لكنّ هذا كلّه ما كان ليحدث لو لم أفرغ حمولتي الثّقيلة في يدها اليُسرى. لم أفهم سبب بكائها وانهيارها أوّلئذٍ. كنتُ أحسبها صلبة ومتماسكة رغم طبيعتها المُتطيّرة وإيمانها بالعلامات. كان طبعها العنيد يرُوقني، لكنّي لم أتصوّر يوما أن تنهار وتخرج عن طورها كما حدث قبل قليل. لقد شعرت نحوها بالشّفقة، وأنا أراها في تلك الحالة المزرية. لكنّي تمنّيت لو تبتلع الخاتم الملعون، وتلعق المنيّ على أصابعها، وينتهي كلّ ذلك السُّخف، حين أخذ باب المكتب يُطرق.

كنتُ أعرفها منذ سنة تقريبا. هي طالبة علم نفس جاءت لتُقوم بتربّص معي. ما يُعجبني فيها هو أنّها لم تكن تنتظر شيئاً من علاقتنا، أعني أنّها لا تنتظر شيئاً أفضل من أن أضاجعها جيّداً في كلّ مرّة. كنّا نلتقي بشكل غير مُنتظم للشّرب والمضاجعة. ويبقى مكتبي بالرازي أفضل مكان إطلاقا، منح علاقتنا طابعاً منفلتاً مجنوناً. كانت أنيسة أو Anùsa، كما يروق لي أن أناديها، مخطوبة لشابّ ستتزوّج به بعد أقلّ

مكتبة الفكر الجديد

من ستة أشهر. وكانت تقول إنّها وإن كانت تخون خطيبها مع أكثر من رجل، فإنّها لم تعد تتصور أن تتخلّى عنه يوما. لقد تعوّدت على وجوده في حياتها وصار يُشكل جزءا من توازنها. ثم إنّ الكثير من العلامات، حسب ما تعتقد، تدفعها للبقاء معه، رغم أنّها فكّرت أكثر من مرّة في إنهاء علاقتها به. وعلّ أكثر ما كان يدفعها للبقاء مع خطيبها هو خاتم الخطوبة الذي علق بإصبعها ولم يُغادره منذ أن وضعته هناك قبل ثلاث سنوات. كان العلامةَ الكُبرى التي تردّ لها يقينها كلّما ساورها الشّكّ في أمر علاقتها به، وتخفّف عنها، ربّما، إحساساً لاشعورياً بالخيانة. مادام الخاتم عالقاً هناك، فعلاقتها بخطيبها ستستمرّ على ما يُرام، هكذا كانت تعتقد، لكنّ الخاتم اللّعين اختار الخروج اليوم بالذات من إصبعها بعد أن أترعتُه بالمنيّ، لتنهار المسكينة، مُعتبرة الحدث علامة العلامات، ودليلاً قاطعاً على انتهاء علاقتها بخطيبها الذي سيصير زوجها بعد أشهر قليلة.

«كلّ هذا ما كان ليحدث لو أنزلت في فمها مثلاً أو على وجهها أو حتّى في ثقب أذنها. لكن لماذا اختار ذلك الخاتم المشؤوم الخروج في هذه اللّحظة بالذات؟» كنت أسأل نفسي في لوم. غير أنّ شدّة الطّرق على الباب جَعلتْ ذهني يكف عن احتمالاته العبثيّة ووجدتني ألتقط بضعة مناديل ورقية ألف بها يد الفتاة وأدسّها بين فخذيها وأعالج هندامي سريعاً وأهب لفتح الباب.

«كنتُ مُتأكدة من أنّك في الداخل، سيّارتك لا تزال رابضة أمام باب القسم»، قالت السيّدة ميم وهي تمرق من تحت ذراعي لتدلف إلى داخل المكتب. «كنتُ على يقين كذلك من أنّك لست وحدك»، أضافت في تخابث، وراحت تتطلّع إلى الفتاة في ريبة. أنيسة كانت تدفن يدها اليُسرى بين فخذيها وتطبطب على جبينها باليد الأخرى، مكرّرة في ذهول وبصوت خافت: «رأسي، رأسي».

مكتبة الفكر الجديد

«هستيريا؟» سألتني ميم، دون أن ترفع عينيها عن الفتاة التي عادت الدّموع تنهمر من عينيها.

«هستيريا»، كرّرت جازمة. ثم واصلت تقول مُجيلة بصرها في أرجاء المكتب محاولة استقراء ما كان يدور هناك:

«هل تعرف لماذا يشكو أغلب المرضى اليوم من صداع الرّأس؟ أذكر أنّ الأمر كان نادراً قبل عشرين سنة.»

«أرجوكِ أرجوكِ، نحن نعمل هنا»، قاطعتها محاولا صرفها. كانت آخر شخص توقّعت قدومه في تلك اللحظة.

«أرجوك، أرجوك، أنا كذلك بصدد العمل.»

«ماذا، هل صرت نفسانيّة دون علمي؟»

«لقد أصبتَ يا عزيزي، يبدو أنّني صِرتُ نفسانيّة بفعل الأقدميّة في الجنون. أُنظر إلى هذه المسكينة وهي تشكو من آلام رأسها دون أن يتمكّن أحد من علاجها. أعتقد أن لا أحد فهم بأنّ تزايد عدد المرضى الذين يشكون من صداع الرّأس سببه الإفراط في النّظافة. في السّابق، كان المرضى شديدي الوسخ. كانوا لا يتوقّفون لحظة عن هرش رؤوسهم التي يغزوها القمل. لكن لا أحد تفطّن إلى أنّ القمل كان يمتصّ الدّم الفاسد من رؤوسهم ويُجنّبهم الكثير من الأمراض. والأمر كذلك مع البقّ، فهو يمتصّ الكولستيرول ويجنّب أمراض القلب وانسداد الشّرايين.»

«رأسي، رأسي»، عادت أنيسة تُغرّد وميم تتأمّلها بمزيد من الرّيبة.

«هيّا، هذا يكفي الآن»، قلتُ بحزم، كاتما ضحكتي لأنّ الضّحكة

مكتبة الفكر الجديد

لو أفلتت منّي فإنّ ميم ستتمادى في الأمر وسيصير من المستحيل اخراجها من المكتب.

«هات»، قالت ومدّت يدها نحوي. (تطلب مالاً)

«ليس الآن، ليس الآن»، قلتُ ووقفت عند الباب أنتظر أن تخرج.

«أعتقد أنّ هناك رائحة منيّ»، قالت وتشممت الهواء من حولها ثم دنت من الفتاة التي انكمشت في رعب.

«هيا، كُفّي عن قلّة الأدب»، قلتُ بحدّة.

«لكنّي متأكدّة»، قالت وأطبقت بيدها على حنكي الفتاة فانفرج فمها في بلاهة وأطلّ لسانها.

سحبتُ ميم من يدها في خشونة وصحت بها أن تخرج وإلاّ سأنادي ناظر القسم. لم أتوقّع أبداً أن تمدّ يدها نحو أنيسة التي عادت تبكي في رعب وانهيار.

«نادِه»، قالت مُتحدّية، ومدّت نحوي يدها مرّة أخرى. «سنسأله إن كانت هناك رائحة منيّ أم لا»، أضافت.

كنتُ أرغب بشدة في ركلها ودفعها خارج المكتب، لكنّها كانت ستقيم القيامة وسيفتضح أمري مع أنيسة التي أخذت تولول كصفّارة إنذار.

«هيّا، أنا في انتظار ذلك. نادِه.»

دسستُ يدي في جيبي بسرعة وسحبت ورقتين ماليتيّن من فئة العشرة دنانير، هما كلّ ما لديّ. ثم ناولتها واحدة متحسّراً لأنّه لم يكن معي صرف. إلاّ أنّها اختطفت الأخرى كذلك قبل أن أرجعها إلى جيبي. وأمام نظراتي المذهولة، قالت وهي تتراجع إلى الخلف:

مكتبة الفكر الجديد

«المرّة المُقبلة لا تَنْسَ رفع سحّاب سروالك»، وغادرت.

* * *

العلامات.

كان لابدّ من المُضيّ بذلك الهذيان إلى أقصاه حتى أتمكّن من إقناع الفتاة بأنّ ما حدث مع الخاتم كان أمراً إيجابيّاً. وبسرعة صرتُ مُخلّصها، لأنّي أقنعتها بأن أيري فكّ قيدها، إذ ألقى في طريقها علامة اعتباطيّة جعلتها تقتنع بأنّ المرء لا يُمكن أن يختار شريك حياته بناء على أمور غير منطقيّة، كالعلامات. ولا أذكر الآن بالضّبط كيف فلسفتُ لها الأمور في ذلك اليوم، لكنّني أتذكّر بأنّها غادرت المكتب بمعنويّات مُرتفعة وإيمان جديد.

صارت الفتاة تعبدني منذ تلك الحادثة. كانت تأتي في العادة للتربّص أيّام الاثنين والأربعاء، ويوم الخميس في بعض الأحيان. أمّا أيّام الثلاثاء والجُمعة فقد كانت مُخصّصة لطالبة أخرى تُدعى أمينة. الطالبتان كانتا تعرفان بعضيهما بعضاً وكلتاهما على دراية بأمر علاقتي بكلتيهما. لكنّ أنيسة بدأت تتدخّل في مجال أمينة، إذ باتت تأتي للتّربص أيّام الثّلاثاء والجمعة. أحسست بأنّها تريد الاستحواذ عليّ لنفسها، وباتت تهدّد بإفساد علاقتي بأمينة، ما جعلني أقتنع بضرورة الإسراع في إنهاء علاقتي بها والتّخلص منها، خاصة بعد حادثة أخرى مجنونة جعلتني أدرك أنّ لها علاقة غريبة مع الخواتم.

Anùsa كانت تُحبّ أن أطأها في دبرها، وهو أمر لطالما كان خطيبها يُعرض عنه بشدّة. كان شرجها الزّهري أشهى من فرجها وأكثر بللا. أذكر أنّني كنت آتيها من الخلف، أعضّ شحمة أذنها وأدفعه فيها كيفما اتّفق، دون تفضيل لفتحة على الأخرى. لكنها كانت تمدّ يدها أحياناً لتخرجه

مكتبة الفكر الجديد

من فرجها وتضعه في شرجها، فما إن أشرع في رهزها حتى تمتلكها الهزّة ويأخذ وركاها في الارتعاش. كنتُ أحياناً أسحبه منها بعد طول وطء، مُباعداً بين ردفيها بيديّ لأحدّق في عمق فتحة الشرج المرسومة كالخاتم، لكنّي لم أتخيّل يوما أن أضيع خاتم زواجي هناك. حدث ذلك لمّا كنتُ أطؤها في حرّها وأولج وسطاي عميقاً في شرجها، فلمّا سحبتُ اصبعي كان الخاتم قد بقي في الدّاخل.

لم يكن خاتم زواجي خاتماً تقليدياً. كان حلقة فضّية غليظة مزخرفة، تشبه خواتم مُغني الرُّوك. أعدَّ لي منه صائغي ماهر نظيرين واحداً على مقاسي أضعه في يدي اليُمنى والآخر على مقاس زوجتي التي كانت تضعه في سبّابتها اليُسرى. كان خاتما جميلا وجذّابا ولا أتخيّل أنّ زوجتي ستفوّت عدم وجوده في يدي لو عدت تلك الليلة من دونه، لذا كان عليّ استرداده من شرج Anùsa ذلك اليوم، مهما كلّف الأمر.

أُصبت بالذهول للحظات وأنا أسحب وسطاي بلا خاتم. وخطر لي أنّ الأمر برمّته علامة تُشير إلى ضرورة إنهاء علاقتي بـ Anùsa التي يُمكن أن تستعبدني وتستحوذ عليّ بالكامل، بعد أن نَجحتْ في ابعاد أمينة عنّي، وبات في امكانها الآن أن تُنهي علاقتي بزوجتي. أحسست أنّها تنتقم عبر شرجها لخاتمها المخلوع، وخطيبها الذي أُصيب بخيبة هائلة ولم يعرف أبداً السرّ الحقيقيّ للنّهاية المفاجئة لعلاقتها به، أشهراً قليلة قبل الزواج. ولا أريد حتّى أن أتخيّل ردّة فعله لو عرف أنّ خطيبته السّابقة باعت خاتمه لتتعشّى ونسكر بثمنه أسبوعاً كاملاً.

تمالكت نفسي وكتمت الأمر عنها ورحتُ أُولج إصبعي في قعر مؤخرتها محاولا العثور على الخاتم. كانت هي تتلذذ لذلك وترتعش، بينما كنتُ قلقاً أفكّر في زوجتي التي يُمكن أن تقطع إصبعي لو تفطّنت

مكتبة الفكر الجديد

لخلوّه. واصلتُ البحث وإحساس بالكراهية تُجاه Anùsa يستولي علي. أنا على يقين من أنّها ستصاب بالقبض ولن تردّ لي الخاتم لو علمت بضياعه في دبرها. كنتُ وقتها مستعدّا لأن أشقّها بسكّين وأسحب أحشاءها مثل سمكة لأجل أنْ أستردّ خاتمي الجميل، لكن يبدو أن الخاتم تاه عميقاً في مؤخّرتها.

يومها غادرنا الرّازي مُباشرة نحو مطعم. كنتُ أنا صاحب الدّعوة. تصنّعتُ أكبر قدر من الودّ وصرتُ في لحظة جنتلمانا لا مثيل له. أعتقد أنّها لاحظت التغيّر المفاجئ في معاملتي نحوها، بعد أن كنتُ أحاول صَرْفها عنّي بأيّ ثمن. لكن لا أعتقد أنّها فهمت السبب رغم أنّ الأمر راقها كثيراً. عوّلتُ على شراهتها للأكل حتى أستردّ خاتمي. الخطّة واضحة؛ لابد من حشوها بالطّعام حتى تتبرّز وتُعيد لي خاتمي، لذا كان لابدّ من دعوتها إلى الأكل وملاطفتها بالكلام الظّريف إلى أن تنشرح وتلين ويسهل اخراؤها.

جعلتها تأكل أكثر من طبق. طلبت لها بيتزا ومعكرونة وسلطة أخطبوط، وتيراميسو في آخر الغداء، بعد أن امتدحتُ طهاة المطعم وصاحبته الايطالية التي رحّبت بنا كما يجب. بعد ذلك غادرنا نحو بيتها وفي الطريق توقّفنا عند بائع آيس كْريم لآتي لي ولها بمخروطي مثلّجات. ورغم كمّية العجين الهائلة التي التهمتها والتيراميسو فإنّها التهمت المخروط بالكامل. بنت القحبة يبدو أنّ جوفها ما يزال يتّسع لجحش مشويّ.

في الطّريق إلى بيتها هاتفَتْ أنيسة أختها لتعلمها بقدومنا وبضرورة أن تغادر البيت. سمعتُ الفتاة تتذمّر على الجهة الأخرى، فقد كان الطّقس حارّا في الخارج ويبدو أنّها لم تكن تُريد الخروج أو لا تملك مكانا

مكتبة الفكر الجديد

تذهب إليه في تلك السّاعة. كانت هي وأختها تتقاسمان بيتاً غير بعيد عن الجامعة.

ما إن وصلنا إلى بيتها حتى عدتُ لمضاجعتها. كنتُ أرهزها بغلّ ولا أضيّع فرصة لخنقها ورفس بطنها عسى أن تأخذها الرّغبة في التّبرّز. لكنّ القحبة كانت تصرخ نشوة وتستمتع بالأمر. بغتة سمعنا صوت موسيقى عالية ينبعث من الحجرة المجاورة. يبدو أنّ أختها لم تغادر البيت ورفعت صوت الموسيقى حتى لا تصلها موسيقانا. نِكتها مرّتين ثم انطرحتُ بجانبها مُنهكا. كانت شاشة محمولي الفضيّة تومض واسم زوجتي يظهر عليها ويختفي. من المُستحيل أن أعود إلى بيتي الآن. ليس قبل أن أستردّ خاتمي، فكّرت ثم أشحتُ بوجهي عن الهاتف وأغمضت عينيّ لحظة أبحث عن وسيلة لدفع الفتاة للتبرّز، لمّا قامت من تلقاء نفسها وذهبت إلى الحمام.

لحقتها هناك على عجل. تفاجأتْ. قُلت لها إنّي لا أريد تركها لحظة وأحبّ أن أستمتع بكلّ دقيقة معها. سرّها ذلك كثيراً وأنا أسألها إن كانت ستبول أم ستتبرّز. ضحكت عارية مقعية أمامي على المرحاض قائلة إنّها ستبول. لكنّي لم أصدّقها وخشيت أن تتبرّز ويذهب خاتمي في المجارير، فأوقفتها واقترحت عليها أن تبول أمامي داخل بانيو الاستحمام. فاجأها ذلك الأمر أيضاً. لكنّي عبّرت لها عن رغبتي في رؤيتها تبول أمامي وقلتُ لها إنّ ذلك سيزيد من اثارتي ورغبتي فيها. ضحكت وقالت تغمزني: «عاشق للبول؟ سأبول عليك لو كنت من هواة ذلك.» ضحكت مُجاراة لها مبتلعاً غيظي. وإذا بها تُغمض عينيها لينزّ خيطان من البول تدفّقا للحظات قبل أن يصيرا خيطاً واحداً. اقتربت منها ووضعت يدي في مرمى الدّفق الدّافئ حتى كفّ، لأرفعها بعد ذلك

مكتبة الفكر الجديد

مبلّلة وأمسح بها على خدّيها وشفتيها. ولدهشتي أخذت تلعق كفي قبل أن تزدرد ابهامي وتأخذ في مصّه بنهم وعيناها ما تزلان مغمضتين.

* * *

لم أكن أتصوّر أن تفعلها. Anùsa فاجأتني ذلك اليوم. كنتُ أنتظر استرداد خاتمي وتركها نهائيّا لمّا اكتشفت أنّ علاقتنا الحقيقيّة ستبدأ عندئذ. ما إن أخذت في لعق يدي المترعة ببولها حتى أخذتني رغبة عارمة في تقبيلها. هجمتُ عليها داخل البانيو وأخذت أقبّلها في افتراس وقد ارحتها فوق بولها. كنتُ قد نسيتُ أمر الخاتم تماما. دفعتني عنها مبعدة فمها عن فمي وراحت تتوسل إليّ:

«بُلْ عَليّ. بُلْ. افعلها. أرجوك. أنا قحبة أستحقّ أن تبول عليّ وتبصق في فمي لا أن تُقبّلني.» كان كلامها الفاحش يُثيرني بقدر ما كان يُثير دهشتي. شعرتُ بأنّي لا أعرفها. Anùsa تحوّلت. حتّى في أشدّ لحظاتها سكراً لم أرها هكذا. يبدو أنّ خروج الخاتم من اصبعها قد حرّرها وجعلها تصير قريبة من أشواقها الحقيقية أكثر من أيّ وقت مضى. واصلت الفتاة توسّلاتها المقذعة عند قدميّ. ثم ركعت وولّتني ظهرها وأرخت عنقها في استسلام كأنّما تنتظر أمر إعدامها، وتوسّلت إليّ أنْ أبول على رقبتها. ما هي إلاّ ثوانٍ حتى كنتُ أبول على شعرها القصير ورقبتها والسّائل الدّافئ يجري مع فقراتها ويغيب في شق مؤخرتها. انتظرتْ حتى انتهت آخر قطرة لتأخذ في استمناء مسعور مطلقة شهيقاً عنيفاً ودموعها تطفر على خدّيها ويدها تدعك بِظرها وشفري فرجها العائمين. أثارني ذلك أيّما إثارة فجعلتُ أستمني بلا هوادة إلى أن أفرغت على وجهها. لم أر في حياتي فتاة تأتيها الذّروة هكذا. كانت في غيبوبة تامة، ترتعد وقد تقعّر ظهرها وتوتّرت عضلاته انشداداً قبل أن

مكتبة الفكر الجديد

ترتخي دفعة واحدة وترتمي فتتكوم عند قدمي في قاع البانيو ويتدحرج خاتمي الضائع من بين فخذيها.

بقيت للحظات أنظر إليها. كان قلبي يدقّ بعنف. شعرتُ بالرّهبة والفتنة تجاهها. كانت كائناً جديداً، ملاكاً مُرهفاً وُلِد وسط البول والمنيّ. مددت يدي نحو شعرها المبلل وأزحت بأناملي خصلة قصيرة غطّت جانباً من خدها المتورّد، قبل أن أقبّلها بعشق، وأستلقي لصقها في البانيو، وأحضنها، وأغمض عينيّ...

ليلتها قرّرتُ ألاّ أعود إلى البيت. لم أعد قادراً على ترك Anùsa ولو لحظة واحدة. شعرتُ بأنّي أرغب فيها أكثر من أي فتاة عرفتها أو رأيتها في حياتي. كانت تستفزّ، بعنف، جميع انفعالاتي. أحسّ في نفس الوقت بأنّي أحبّها وأزدريها، أرغب فيها وأودّ ركلها وملاطفتها وصفعها وإهانتها وتقبيلها. صارت في لحظة تستأثر بكلّ ما يُمكن أن ينفعل به كياني. مجرّد رؤيتها تتلذّذ بذلك الشّكل الفظيع كان أمراً يُطربني ويورثني إحساساً خارقاً بالعظمة. ليلتها تأكدتُ من أنّها مُستعدّة لفعل أيّ شيء لأجلي. ونحن مُتعالقان في ذلك البانيو الذي تفوح منه رائحة البول والمني، باحت لي برغبتها في أن أمتلكها. ورغم أنّي لم أعِدها بشيء، فقد كانت تهبني نفسها بلا رحمة. فإن لم يكن هذا هو الحبّ، فلا يُمكن أن يكون شيئاً آخر.

Anùsa كانت محنة صعبة. كانت مجنونة. لقد فهمتُ أن عليّ أنّ أعذّبها وأُذلّها وأدفعها إلى فم الهاوية حتّى أكون جديراً بحبّها. كان عليّ أن أحبّها بقسوة. لم تكن تطلب غير ذلك. كانت مُستعدّة لأيّ جنون، لأيّ محظور أطلبه منها. حتى ولو كان اغتصاب أختها التي صُدمت وهي ترانا عاريين نتمرّغ في افرازاتنا، قبل أن ننقضّ عليها...

مكتبة الفكر الجديد

Lazer

لاحظت أن السّحلية التي أخذت تتردّد على سقف مكتبي منذ أكثر من شهر، كانت تهوي على الأرض أحياناً بلا سبب، ثُمّ تركض نحو أقرب جدار تتسلّقه وتعود لمكانها على السّقف بجانب مصباح النّيون. لاحظت كذلك أنّ الأمر لم يحدث إلاّ في تلك المرات التي أكون فيها بصدد مضاجعة أنيسة أو أمينة. صدى سقوط السّحلية كان يباغتنا أحياناً ويدفعنا إلى التّوقّف لاستطلاع الأمر، لكنّ الكائن المذعور كان يلوذ بالجدار سريعا.

أنيسة كانت تتقزّز من السّحلية ولا تريد حتى النّظر إليها. أمّا أمينة فقد كانت لها نظرية طريفة تُفسّر سقوطها المتكرّر من السّقف لمّا نكون بصدد ممارسة هوايتنا المُفضّلة. إنّها بكل بساطة تعتقد أنّ الكائن الزّاحف كان يتلصّص علينا وينتصب عضوه في كل مرّة من فرط الإثارة فيصطدم بالسقف ويدفعه ذلك الأمر إلى السّقوط. أذكر أنّ تفسيرها أضحكني كثيراً، ووجدتني أسألها متهكّما عن السبب الذي يدفعها إلى الاعتقاد أنّ السّحلية كانت ذكراً وليست أنثى.

لكن بعد أيّام قليلة تأكدتُ من أن أمينة كانت على حقّ، وأنّ كلّ ما قالته في شأن السّحلية كان صحيحا.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

أوّل ما كلّمني «ليزر» (وهو اسم السّحلية كما علمتُ لاحقا) أصبت بشيء من القلق وقد حسبت الأمر هلوسة. فبمجرّد أن غادرت أمينة المكتب يومها، حتى سمعتُ صوتاً رقيقاً مذعوراً يطلب مني أن أقترب. كان الكائن الزاحف قد سقط على الأرض مثل كل مرّة يشهد فيها واحدة من مضاجعاتنا الحامية، لكنّه بقي عالقاً منقلباً على ظهره هذه المرّة ولم يستطع العودة إلى السّقف. كان أيره الدّقيق منتصبا كإبرة وأطرافه الأربعة تتخبّط في تشنّج يائس دون أن يتمكّن من الانقلاب على بطنه.

تلفّتُّ حولي قَلِقاً وأنا أسمع نداءه المُستغيث. واستبعدتُ أن تكون أمينة تخاتلني من وراء النّافذة المُسدل ستارها. الصّوت انبعث من الأسفل، من وسط المكتب. ويبدو أنّنا في غمرة تلاحمنا لم نتفطّن إلى أن السّحلية بقيت على الأرض ولم ترجع إلى السّقف كالمعتاد. قمت من مقعدي بعد أن لمحت الكائن الصّغير يُصارع للعودة على بطنه. ما من شكّ في أنّ النّداء المُستغيث كان ينبعث منه.

أخذتُ قلمي ثم اقتربتُ منه مندهشا. كان طوله لا يتجاوز العشرة سنتيمترات. وبحذر، مددت القلم نحوه وقلبته على بطنه. ما إنْ حدث ذلك حتى زحف بسرعة نحو الجدار المقابل وتسلّقه في خفّة ليتوقّف عند مستوى وجهي. اقتربت منه، أتفرّس في تعاريق جلده الأملس اللاّمع وعينيه الجاحظتين، فخاطبني وهو يرى تعبيرة وجهي المأخوذ: «لا أعرف كيف أشكرك. لكن سأعرّفك على نفسي أوّلا. اسمي ليزر وأنا مُحلّل نفسي لاكانيّ.»

تجاوزتُ دهشتي بسرعة متذكّراً أنّني في مُستشفى الرّازي حيث كلّ شيء جائز الحدوث. وأجبته: «أيمن الدّبّوسي، أخصّائي نفسيّ

مكتبة الفكر الجديد

سريريّ»، وأمسكتُ يدي في آخر لحظة بعد أن كادت تمتد نحوه لتُصافحه.

* * *

يومها صرنا صديقين، بعد أن تعرّفنا على بعضنا البعض. واشترط ليزر بأن نحتفظ بأمر صداقتنا سرّا بيننا. قال إنّه لم يبرأ بعد من خوفه من النّساء. لذا يفضّل ألاّ تعرف أنيسة أو أمينة شيئاً عن الأمر.

كان مخلوقاً طريفاً. وكنتُ أضحك كلّ مرّة لمّا أكتشف بعض جوانب شخصيته الغريبة. لقد علمتُ منه مثلاً أنّه كان مُولعاً بالتلصّص على النّساء. وأنّه قبل أن يصير مُحلّلا نفسيّا، كان يتردّد على صالونات الحلاقة والتّجميل. هناك، ذات مساء شتويّ، فقد ذيله. أُصيب بالدّوار مَرّة لفرط ما كانت سيّدات الصّالون الصاخب يُدخّنّ وينفثن دخانهنّ عاليا. هوى المسكين على الأرض من تلبّد الدّخان الكثيف الذي لعب برأسه وجعله يفقد توازنه. لكن قبل أن يستفيق ويُعاود الرّجوع إلى السّقف، كانت إحدى السيّدات تدوس على ذيله بكعب حذائها الطّويل المُدبّب، لتفصله عن بقيّة جسمه. أكّد ليزر بأنه رغم الوجع، وكونها المرّة الأولى التي يفقد فيها ذيله، لم يشعر بالخوف. كان على يقين من أنّ ذيله سوف ينبت ويستطيل. لكن لمّا طالت المُدّة ولم يحدث ذلك - كما هو الشّأن لدى فاقدي الذّيل من بني جنسه- بدأ يُصاب بالحيرة والفزع، ثم تطوّر الأمر إلى حالة اكتئاب، انتهت به أخيراً على أريكة المحلّل النّفسي.

بعد ستّ سنوات من حصص التّحليل النفسيّ اكتشف ليزر أنّ قُصور ذيله عن النّمو كان مُرتبطاً بصدمة نفسيّة خلّفت مشهداً مكبوتاً في لا

مكتبة الفكر الجديد

شعوره، يعود للأسابيع الأولى من عمره. لقد توصّل بمعيّة المُحلّل النفسيّ، الذي كان *لاكانيًا* هو الآخر، إلى أن يتذكّر أنّه لمّا كان طفلا، في أسبوعه الثّالث، شهد حادثة عنيفة تتمثّل في انطباق باب غرفة استحمام، بسبب نسمة قويّة، على إصبع ولد صغير كان يقف مُتلصّصاً مُستنداً بيده إلى شقّ الباب المُوارب.

بعد ذلك الاكتشاف الهام نبت ذيل ليزر بعض الشيء، ثم توقّف عن النموّ. ولم يُدخِل عليه ذلك سوى مزيد من الحيرة والاضطراب. اضطرّ إلى أن يضع ذيلا اصطناعيا وتضاعف شعوره بالنّقصان. بات يحسّ بضرب من الخصاء المُهين. حكى لي كيف كان يبكي على أريكة المُحلّل النفسيّ راجيا إيّاه أن يُخلّصه من عقدته التي تمنع ذيله من النّموّ كبقيّة بني جنسه، قائلا إنّه كان يُفضّل وقتها أن يكون بلا ذيل إطلاقاً على أن يكون له ذيل حقير ضئيل يُشبه البِظر.

حكاية ليزر مع ذنبه المقطوع لم تتوقّف عند ذلك الحدّ. صار يعود مُكرَها إلى ذلك الصّالون نفسه ليتنشّق دخان السّجائر الكثيف ويلقي بنفسه من السّقف على الأرض، آملا أن تدوس سيّدة بكعب حذائها العالي ذنبه الاصطناعي الذي أصبح يجد كلّ مرّة لذّة في فقده. صار له ولعٌ خاص بكعوب النساء المُدبّبة والعالية. كان يقضي ساعات طويلة على السّقف يتأمّلها ويستمع إلى طقطقاتها. كان إحساسه تجاهها مُتضاربا. يشعر أنّه يمقتها ويخشاها لأنّها أفقدته ذيله، ويعشقها لأنّها طويلة صلبة وقاسية. كانت كُلّ ما لم يكن يملك. وفي منامه كان ليزر يجد نفسه دائماً عالقاً في كابوس غامض، مُتعلّقاً بسقف بلّوري شفّاف، يزحف هلِعاً ليُفلت من أحذية نسوة طويلات نحيفات، كنّ يرقصن على

مكتبة الفكر الجديد

السّقف عاريات ضاحكات، يطفن بفانوس الإنارة المهيب كالسّاحرات. شعورهنّ إلى الأسفل مُسدلة طويلة، وكعوبهنّ العالية تنقر البلّور كذُبابات السّيوف، بينما عاصفة في الخارج وبروق تومض وأمطار تتكسر على الزجاج. ولم يكن ينقذ المسكين من شقاء ذلك العالم المقلوب غير إلقاء نفسه من عَلِ.

* * *

مضت أشهر أخرى طويلة من العلاج، توصّل فيها المُحلّل النّفسيّ إلى أنّ ليزر لم يكتشف غير جُزء من الحقيقة، وأنّ عليهما مُواصلة التّحليل سنوات أخرى، حتى تنجلي الحقيقة كاملة ويكتمل المشهد ويتخلّص من عقدته. كما فسّر سلوكه المُتهوّر المُتعلّق بمتعة فقده لذنبه على أنّه فعل مُعادل للانتحار، وإن كان يهدف من خلاله إلى السّيطرة على واقعة فقدان الذّيل الأولى، عبر تكرارها كفعل إرادي وليس قسري.

بعد أن تقدّم العلاج مرحلة أخرى، تخلّى المُحلّل النفسي عن ذلك التّأويل مقترحاً تأويلاً آخر. كان يعتقد أنّ عشق ليزر للتلصّص على النّساء مُرتبط بتماهيه مع الولد الذي كان قد شاهده أثناء طفولته يتلصّص من فرجة باب الحمّام. ما كان يُشاهده الولد من موضعه، ولم يكن يراه ليزر، ولّد لدى الأخير شغفا بالتلصّص، لاستكمال ذلك المشهد المبتور. رجّح المُحلّل النفسيّ أن ما كان يشاهده الولد الصّغير وقتها قبل أن ينطبق الباب على إصبعه، كان أمّه واقفة في البانيو تغتسل عارية. كان يعتقد كذلك أنّ مفاجأة اكتشاف الولد الصّغير أنّ والدته لا تملك قضيبا مثله، تزامنت مع انطباق الباب على إصبعه. ليعيش لحظة بتر إصبعه،

مكتبة الفكر الجديد

بمُقتضى ذلك، كعقوبة أو ضرب من الخصاء النّاتج عن شغفه الزّائد وتلصّصه الآثم.

(«وأين هو الأب في كل هذا؟» أذكر أنّي هتفتُ بليزر مُتهكّما، وهو يبلغ هذا المُستوى من التحليل. «الأب هو الباب»، كان قد أجاب، مُستطرداً: أنت تعلم أنّ *بابا* و*باب* يعنيان تقريباً نفس الشّيء. الباب هو الحدّ: القانون والممنوع، أي كلّ ما يُمثّله الأب.)

كان المُحلّل النفسيّ يعتقد أنّ ليزر استبطن ذلك المشهد العنيف عبر التّماهي مع الولد. وأنّ كل ما وقع له من بعدها كان مُرتبطاً بذلك المشهد المبتور، وأنّ سلوكه التلصّصي اللاّحق، كان ناتجا عن رغبته المكبوتة في استكمال الجُزء الناقص من الحكاية. لكن يبدو أنّه قد فات المُحلّل النفسيّ الكثير، في ما يخص طباع السّحالي، وفي أن التلصّص والترقّب والترصّد انفعالات طبيعيّة تُميّز تلك الكائنات الحائطيّة.

قَبِل ليزر بارتياح كبير ذلك التّأويل رغم أنّ ذيله لم يَنْمُ شعرة واحدة. كان يأمل أن تظهر العلامات الايجابية للعلاج لاحقاً بعد أن يتوصّل إلى فكّ بقية اللّغز، إلاّ أنّ المسكين وقتها لم يعد معه مال كافٍ لمتابعة العلاج. حصص التّحليل النّفسيّ استهلكت كل ثروته التي ورثها عن أبيه الذي كان يملك مصنعاً لتصدير الذّباب المُجفّف. وبعد سبع سنوات من الانبطاح على أريكة المُحلّل النفسيّ، أفاق ليزر ليجد نفسه مفلساً بحقيقة مبتورة وذنب ضئيل يُشبه البظر. ولم يعد التّعيس قادراً على دفع أجرة الحصص الأسبوعيّة وهو يُدرك أن المُحلّل النفسي لا يقبل الدّيون أو القروض. فلم يبق له عندها غير أن ينتحر. أو أن يتحوّل بدوره إلى مُحلّل نفسيّ. فاختار الحلّ الثّاني.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

ليزر لم يسترجع ذيله. إلا أنّه قبل بالخصاء واسترجع في المُقابل جُزءا من ثروته بفضل عمله كمُحلّل نفسيّ. وقد علمتُ كذلك أنّه كان يهوديّا فرنسيّا من أصل تونسيّ، جاء إلى الرّازي في نطاق بحث اثنوسيكولوجي للقيام بدراسات في مجال الخصاء المُقارن. كان عضوا مُهمّا في «حلقة الخصاء الباريسي»، إحدى أعرق مؤسّسات التّحليل النّفسي ذات التوجّه اللاّكاني. كان يُقضّي يومه مُتنقّلا بين مكاتب القسم، مارّا من سقف إلى سقف، مُتلصّصاً على ما كان يدور هناك من مُقابلات، مدوّنا ملاحظاته في ما يخصّ موضوع الخصاء المُقارن. لم يكن موضوع بحثه يُثير اهتمامي، وإن كان يقصّ عليّ، بمُتعة، أغلب ما شاهده داخل المكاتب الأخرى، دون أن أطلب منه ذلك.

أذكر أنّه حدثني مرّة عن طبيب مُقيم شابّ تحصّل حديثاً على ديبلوم في التّنويم المغناطيسيّ فأخذ يُنيم المرضى ويفتّش في حقائبهم وجيوبهم ليسلب أموالهم وأغراضهم الثّمينة. كان ليزر يعتقد أنّ الطّبيب مريض عُصابيّ يسرق لأجل مُسمّى، إلى حين يستردّ قيمة المال الذي دفعه لتلقّي ذلك التّكوين في العلاج بالتّنويم المغناطيسيّ. وكنتُ أراهن على أنّه مجرّد لصّ لا غير، أو مُنحرف في أقصى الحالات. وأنّه لن يتوقّف عن ذلك الصّنيع أبداً ما دام الأسلوب الذي يعتمده في ذلك لا يرقى إليه شكّ. والأمر مُرشّح للتّطور نحو أشكال أخرى من الاستغلال كالتحرّش الجنسيّ. وما هي إلا أيّام قليلة حتى أكّد لي ليزر بأنّني كنتُ على حقّ.

حدّثني كذلك عن طبيبة أخرى وصفها بالمِكنسة الصّفراء المُقرفة. كانت مُساعدة رئيسة القسم. حكى لي كيف كانت تُغلق باب مكتبها من الدّاخل لتبقى وحيدة، بعد أن تَفرَغ من مُعايدة المرضى. فتخلع جواربها

مكتبة الفكر الجديد

الطّويلة وتأخذ في شمّها مُنتشية، مُنقّلة أنفها بين موضع الفرج والشّرج تارة وموضع القدمين تارة أخرى. من ثم كانت تطبق المواضع الثلاثة المنتنة على بعضها بعضاً وتسحب نفساً قويّاً عميقاً يجعلها تدوخ وترتخي على المقعد كخرقة منتنة. ليزر كان يعتقد أنّها كانت تلجأ إلى ذلك الصّنيع كضرب من العلاج الوقائيّ ضد نوبات القلق والتّشنّج التي تنتابها من حين إلى آخر. لكنّ أغرب ما حكاه لي، حول ما كان يدور في مكاتب القسم الأخرى، كان أمراً غير مألوف مُتعلّقاً برئيسة القسم.

قال إنّه على يقين من أنّها ليست كائنا بشريّا. وكنتُ لأصدّقه حتى وإن لم يُضِف شيئاً آخر. لم يكن الأمر استعارة. كان ليزر يعتقد فعلا أنّها ليست كائنا بشريّا وإنّما هي شيء اصطناعيّ يُشبه المحطّة أو المركبة التي تؤوي داخلها كائنات رخوة غريبة. ولأكثر من مرّة شَهِد في مكتبها عرضاً خارقاً مُرعباً.

يبدو أن البدينة كانت تُغلق باب المكتب من الداخل وتندسّ في مقعدها الوثير وتجمد كآلة عادمة. تلبث كذلك قليلا فيأخذ بُخار أبيض خفيف في الانبعاث من ثقبي أذنيها ومنخريها، بينما عيناها مُنقلبتان إلى الوراء لا يُرى منهما غير البياض. وما هي إلاّ لحظات حتى تفتح فمها على أقصاه كفرس النهر فتأخذ كائنات لزجة خُصائيّة الشكل خراويّة اللّون في الخروج من فمها مُحرّكة قرون استشعارها في ليونة، وتنتشر في أرجاء المكتب مُتقافزة في خفّة وحرّية. كانت الكائنات العابثة تتعارك أحياناً وتأخذ في التّناطح بعنف. وأحياناً أخرى تتلاحم مشبكة قرون استشعارها، فتنبض وتتألق مُكتنفة بهالة بُنّية مُشعّة. فما إن يُطرَق باب المكتب حتى تنسحب وتعود للقفز بين شدقي رئيسة القسم المفتوحين، وقد توقّف البخار الأبيض عن الانبعاث من مخارجها. لتستيقظ الدّابّة

مكتبة الفكر الجديد

الآليّة أخيراً وتعود لسلوكها البشري، ما إن تعود تلك الكائنات إلى جوفها.

كان ليزر يتردّد على مكتبها باستمرار لمُراقبتها ومحاولة معرفة المزيد عنها وعن تلك الكائنات الرّخوة. كان يهتمّ بها اهتماماً خاصّاً يتعلّق ببحثه في موضوع الخصاء المُقارن. ولم يكن يخشى العودة إلى مكتبها رغم كل ما اكتشفه في شأنها. هي لم تكن تُخيفه، لأنّها، على حدّ قوله، ليست امرأة، حتّى وإن كانت تبدو كذلك في الظاهر. كانت قصيرة ضخمة معوجّة الظهر بشكل لا يسمح لها بارتداء أحذية عالية الكعب كالنّساء الحقيقيّات. وهي برقبتها القصيرة تتحرك كفرس نهر مُعذّب نجح في الوقوف والمشي على قدميه الخلفيتّين.

لكنّ ليزر لم يجرّب العودة إلى مكتبها منذ أن شهد هناك حادثة مُرعبة حكاها لي مُتوتّرا، زاحفا على السقف جيئة وذهابا. قال إنّ حمّالة الخُصى بصقت واحدة من تلك الكائنات الفظيعة في وجه أحد الأطبّاء الجُدد فأصيب بالهلع وهو يرى الكائن اللّزج ينطّ من فم رئيسته ليندسّ داخل ثيابه ويزلق بين فخذيه معملا مجسّاته في لحمه ويعلق ويستقرّ هناك. قاوم الطبيب المفزوع الهجوم المُباغت محاولا انتزاع الشّيء من داخل ثيابه، ثم توقف عن ذلك مُتشنجا وجفناه يطرفان كأنّما أصيب بنوبة صرع، قبل أن يهدأ ويُعيد فتح عينيه، ويقول لها في طاعة، بابتسامة باردة: «أمرك سيّدتي». وغادر المكتب كأنّ شيئاً لم يكن.

فرضيّات ليزر حول حمّالة الخُصى كانت تقضي بتصنيفها ضمن بعض إناث الحشرات، على غرار العنّاء أو الأرملة السّوداء، اللاّتي كنّ يتناسلن مع الذكور ثَمّ يفترسنهم أحياء. ورغم الاختلاف الهائل في

مكتبة الفكر الجديد

الحجم، فقد كان يعتقد، أوّل ما اكتشف سرّها، أنّها كانت تُضاجع ذكور الأطبّاء وتفترس خصاهم للسيطرة عليهم في ما بعد. لكنّه بعد أن شهِد ما حصل مع الطّبيب الشّاب، أدرك أنّها تعتمد أسلوبا آخر أكثر تطوّراً في السيطرة على العناصر الجديدة الواعدة. كانت هي التي تُبادر بزرع بيضها الشيطاني بين أرجلهم، لتُحكِم سيطرتها عليهم فيأتمروا بأوامرها في ما بعد.

قلتُ لليزر رغم كلّ ما حكاه لي إنّني أبذل مجهوداً خارقاً لأمسك نفسي عن الضّحك في كلّ مرّة كنتُ أصادف فيها رئيسة القسم. لم أكن أستطيع لحظة واحدة أن أتخيّلها أكثر من مُجرّد فرس نهر قزم يُعرَضُ في سِرك. يُصفّق له الجمهور كلُما نجح في أن يستقيم ويمشي على أطرافه السُّفلى مثل البشر.

قال لي كذلك إنّه لا يخشى عليّ منها. فلا مطمع لها فيّ على ما يعتقد. كانت حسب مُلاحظاته لا تختار إلا الأطبّاء الذين تتوقّع أنْ يكون لهم شأن في المُستقبل وأطماع لتقلّد مناصب سلطويّة عُليا. إنّها لا يُمكن أن تُضحّي بزرع إحدى بيضاتها في أخصائيّ نفسيّ بمُرتّب بائس وبلا مطامع إطلاقا.

* * *

قرّر ليزر الاستقرار في الرّازي بعد ستّة أشهر قضّاها مُتنقّلا بين جُدرانه المشقّقة وأسقفه الرّطبة. قال إنّه وجد التّشجيع الكامل من قِبل المُهتمّين بمجال التّحليل النّفسيّ في تونس، وإنّ هناك لائحة طويلة من العُصابيّن بصدد الانتظار للانبطاح على أريكته. كانت له كذلك اتّصالات مع جمعيّات التّحليل النّفسيّ والطّبّ النّفسيّ ووحدات البحث التي كانت

مكتبة الفكر الجديد

تتهافت على استدعائه لتقديم مُحاضرات في موضوع الخصاء والحضارة. لكنّه أسرّ لي أنّ ما شجّعه أكثر من غيره على الاستقرار في تونس، كان وفرة الذّباب والحشرات وتنوّعهما اللّذين جعلاه يُفكّر في إعادة فتح مصنع للذّباب المُجفّف واسترجاع مهنة والده. ويبقى أعظم ما وقع لليزر منذ قدومه إلى الرّازي، كان حدث استعادته ذيله.

الأمر كان مُفرحاً ومُربكاً في الوقت نفسه. وكلّ ما استطاع إدراكه هو أنّ ثمّة علاقة مّا بين سقوطه منتصبا من السّقف أثناء تلصّصه عليّ ونموّ ذيله. وليزر على غرار كلّ المُحلّلين النّفسيّين لم يكن يُؤمن بجدوى العلاج السُّلوكي البورنوغرافي، رغم أنّه في كلّ مرّة كان يسقط فيها متأثّراً بإحدى مضاجعاتي العنيفة، كان ذيله ينمو بعض الشيء. ولم يتطلّب الأمر أكثر من خمس سقطات ليسترده كاملا.

كان ذلك لغزاً محيّراً جعل رئيس حلقة الخصاء الباريسي، الدّكتور Lazard، يقطع إجازته بـ Saint Tropez ويتنقّل بنفسه إلى الرّازي ليقف على حقيقة ذلك الأمر. كان ليزر يشعر بغضب بالغ وإحساس بالخديعة لم يُخفِهما عن الدكتور لازار الذي قضى فوق أريكته سنوات طويلة بدّد عليها كلّ ثروته التي ورثها عن والده. قال لازار، لليزر، الذي حاول أن يتمرّد على سيّده، إنّه يعتقد أنّه مِثليّ جنسيّ مكبوت، وأنّ تلك هي الحقيقة الوحيدة التي لم يستطع النفاذ إليها والتي كانت تحول دون نموّ ذيله إلى حدّ الآن. قال له ذلك دون تمهيد، وبطريقة لا تخلو من التّشفّي. وحكى لي ليزر لاحقاً بأنّ ذلك التأويل كان بمثابة الحكم بالإعدام الذي أصابه بخيبة وإحباط جعلاه يخنع وينكمش على نفسه أمام المُحلّل النّفسيّ. ولم يستطع وقتها أن يُنكر بأن ما كان يُثير تهيّجه في تلك *البورنوغرافيا* التي كان يُشاهدها داخل مكتبي، كان عضوي

مكتبة الفكر الجديد

منتصبا، أكثرَ من أيّ شيء آخر. رغم أنّه أوضح في ما بعد للمحُلّل النّفسيّ، أنّه في تماهيه مع عضوي، كان يشعر بمُتعة هائلة جعلته يتغلّب على خوفه من النّساء، بل ويشعر برغبة عارمة في ترك السقف وولوج الفتاة من جميع مخارجها، وحرثها حرثا، كما رآني أفعل ذلك. ولم يقتنع المُحلل النفسي بذلك داعيا ليزر إلى ترك «المُقاومة»، والقبول بالحقيقة.

ويبقى التّساؤل الأهمّ الذي ظلّ ليزر يطرحه على سيّده دون أن يجد له الأخير إجابة: «ما الذي لم يكن مُمكنا على أريكة المُحلّل النّفسيّ وصار مُمكنا في ما بعد؟ ما هو الأمر الذي لم يعرفه ليزر أبداً على أريكة المُحلل النّفسيّ وعرفه لاحقاً بعد أن شاهده لأوّل مرّة في مكتبي. وبكل بساطة كان ذلك الأمر هو المُتعة .*المُتعة وقد صارت مُمكنة دون شروط*.»

مكتبة الفكر الجديد

عودة فرانتز فانون

الرّجل الغامض الذي وقف وراء نافذة مكتبي لحظات يُعدّل من وضع قبّعته، قبل أن يمضي في طريقه، كان زنجيّا بالغ الأناقة وَخَط الشّيب فوديه. خلته لوهلة مُمثّلا أميركيّا ببذلته البيضاء وطوله الفارع وحضوره القويّ. لم أر غير جانب وجهه وصدغه البارز، لكنّ وجهه بدا لي مألوفاً. قمتُ من وراء المكتب وفتحتُ النّافذة لأتأكّد من أنّه الشّخص الذي كان اسمه يجول بخاطري. إلاّ أنّه ولّى مغادراً حديقة القسم بمشية واثقة، قبل أن يتوارى خلف سور أشجار الصّنوبر العالية. هل يُعقل أن يكون هو؟ من المُستحيل أن يعود للرّازي بعد كلّ هذه السّنوات. من المُستحيل أن يكون «فرانتز فانون».

مضت ثلاثة أيّام قبل أن ألمح الزّنجي الأنيق من جديد. كنتُ في مُقابلة مع مريض لمّا مرّ أمام الشّباك. هذه المرّة كان دون قبّعة، وقد التفتَ لحظة جهة النّافذة لتنكشف لي ملامحه المُميّزة. ما من شكّ في ذلك، إنّه فانون بشحمه ولحمه، وتلك النّدبة المميّزة على وجهه تؤكّد بأنّه هو. كان يرتدي قميصاً أزرق سماويّاً مشمّر الأكمام حتى المرفقين، وسروالا عاجيّ اللّون، وحذاء جلديّا لامعا. أمعن النّظر في وجهي ثم مطّ شفتيه المُكتنزتين، قبل أن يُلقي نظرة على ساعته اليدويّة ذات الجلد البنّي، ويُواصل طريقه كما في المرّة السّابقة. أردتُ أن ألحقه هذه المرّة

مكتبة الفكر الجديد

لكنّ المريض الذي أمامي كان في حالة انهيار لا تسمحُ بتركه في تلك اللّحظة لأيّ سبب كان.

أنهيتُ العمل سريعاً وغادرتُ القسم أتعقّب الرّجل الأنيق. الأكيد أن هناك سببا وجيها لعودته الآن. سألتُ عنه مجموعة من الشبّان المُقيمين، إن كان أحدهم قد لمحه، وكانوا واقفين عند سور القسم. لكن لا أحد منهم كان يعرفه، ولا حتّى سمع عن اسم «فرانتز فانون». ثم انفجروا ضاحكين لمّا قلتُ لهم إنّه زميلهم؛ طبيب نفسيّ مثلهم، عمِل في مُستشفى الرّازي لسنتين، قبل أكثر من نصف قرن.

اقتنيتُ قهوة من الكفيتيريا وتابعتُ البحثَ عنه هناك، ثم رحتُ أتمشّى بين حدائق المُستشفى على أمل أن أقع عليه صدفة. مرّت نصف ساعة عدتُ بعدها إلى حديقة البُرتقال عند المدخل الرّئيسي وقد يئستُ من العثور عليه. سرتُ على العُشب المصفرّ لأجلس إلى إحدى الطاولات الخشبية. كنتُ على وشك الجلوس لمّا فوجئتُ بصيحة تحذير من مريض جالسٍ على طاولة مُجاورة. ثم قام ودنا بسرعة من الطّاولة التي كانت مقاعدها مُدمجة من الجانبين، وهزّها ليُريني أنّها غير مُثبّتة بالأرض، وتنقلب إلى الوراء بمجرّد أن يجثم الشخص بثقله على أحد جانبيها. الرّجل دعاني للجلوس بجانبه على طاولته الثّابتة، على ألاّ أتدخل إذا ما جاء شخص للجلوس على الطاولة المُفخّخة. بمجرّد أن وافقتُ وجلستُ بعد أن شكرته، حتّى وجمَ ولاذ بالصّمت وبقي يُدخّن دون اكتراث لوجودي. أنا كذلك نسيتُ وجوده ولبثتُ أفكر في سرّ عودة فانون. هل عاد للعمل، أم لسبب آخر؟ ثمّ ماذا جاء يعمل عند نافذة مكتبي مرّتين؟ ولماذا نظر إلى ساعته؟ هل قصد بذلك شيئاً مّا؟ كنتُ

مكتبة الفكر الجديد

أفكّر مُرتشفا جرعات صغيرة مُتتابعة من القهوة دون أن أبعد الكوب عن فمي، لمّا اقترب كهل وابنه الذي يبدو من لباسه وهيأته أنّه نزيل هنا. ارتحتُ لمّا رأيتُهما يتجاوزان الطّاولة المُفخّخة للجلوس عند طاولة أخرى شاغرة، لكنّهما سُرعان ما عادا أدراجهما بمُجرّد أن وجدا أنّ الطّاولة الأخرى لم تكن في الظّل. كان الولد جامد الملامح زائغ البصر، يمشي مشية بلهاء مُتصلّبة. أمّا الكهل المحني الكتفين فيبدو من ملامحه المُتعبة بأنّه والدُه. حطّ الرّجل على الطّاولة كوبي القهوة اللّذين كان يُمسكَ بهما، قبل أن يجلس هو وابنه على الجانب نفسه في تزامن، لتنقلب بهما الطّاولة إلى الخلف وينكبّ فوقهما كوبا القهوة بالكامل. هأهأ المريض الذي يُجانبني بضحكة ميكانيكية تُشبه صوت دوران دولاب صدئ. كان ينظر إلى الرّجلين مرفوعي الأرجل في شماتة، ثم ينظر إليّ ويُواصل في ضحكه الذي تحوّل إلى شهيق عنيف. الرّجلان المنكوبان قاما عن الطّاولة بنفس الملامح الثابتة ليتركاها مقلوبة ويعودا من حيث أتيا، وكأنّ شيئاً لم يكن. واصل المريض هأهأته الصّدئة وأنا أشيح بوجهي عن فمه القذر. ثم قام واتّجه نحو الطّاولة المقلوبة وأعادها إلى وضعها العادي، وعاد للجلوس وغرق مرّة أخرى في الصّمت والوجوم، مُنتظراً وقوع شخص آخر. في أقلّ من نصف ساعة جاء طفل وأمّه، ثم رجل وامرأة، رُفعت أقدامهما في الهواء وانسكبت القهوة عليهما بعد أن انقلبت بهما الطّاولة. الغريب أن لا أحد ممّن وقعوا في الفخّ كان يتذمر. كلّهم ينهضون بنفس الملامح الثّابتة بعد أن تُرفع أرجلهم في الهواء، ليعودوا، في تسليم، من حيث أتوا. إلى أن جاءت طالبتان شابّتان جلستا بتزامن متواجهتين، لتثبُت الطاولة في مكانها بفعل التّوازن على الجهتين.

مكتبة الفكر الجديد

«الأطبّاء لا يسقطون بسهولة»، علّق المريض بجانبي وضرب بكفّه على الطاولة في أسف. ثم بقي يُكرّر الجُملة بآليّة وكأنّه لم يستوعب الأمر، بينما عدتُ لتجرّع قهوتي في انصراف. فُجاءة تبادر إلى ذهني أن أسأله لمَ لمْ يتركني أقع في الفخّ، مثلما كان الشّأن مع كُلّ الذين مرّوا بالطّاولة ورُفعت أرجلهم في الهواء إلى حدّ الآن. طرحتُ عليه السّؤال دون تردّد، فالتفت إليّ وقال نافثاً دخانه المُقرف في وجهي: «لو أنّ الأمر بيدي لتركتك تتشقلب وتُرفع رجلاك، لكنّه أصرّ على تجنيبك ذلك.» في الأثناء، نهضت الطّالبتان عن الطاولة في خفّة وتزامن، وغادرتا دون مُشكلات. واصل الرّجل وكأنّه يخاطبُ نفسه: «فليفعل ما يشاء. أنا لا دخل لي. على كلّ حال، هو من اكتشف أمر الطّاولة. هذه أمور تخصّه. فليفعل ما يشاء.»

صحتُ وضربتُ على الطاولة لأوقفه: «توقّف، عمّن تتحدّث، ما هذا الهُراء؟»

لم يقل شيئاً هذه المرّة، وكلّ ما فعله هو أنّه أشار بإصبعه إلى شيء مّا خلفي، فالتفت. كان فرانتز فانون واقفا تحت شجرة بُرتقال وارفة الظّلال.

آه، للأمانة، كان يضع يديه في جيبه ويبتسم بزاوية فمه اليُسرى الذي تدلّت منه قشّة قصيرة.

* * *

مُدرّج «سْليّم عمّار»، ذلك الثّلاثاء، كان يعجّ بالأطبّاء والنّفسانيّين. جاؤوا كلّهم لاكتشاف أسلوب العلاج الجديد الذي سيعرضه فانون أمامهم بعد قليل. كان هناك توتّر في الجوّ وترقّب. العديد من مُمثّلي

مكتبة الفكر الجديد

مَخابر الأدوية اندسّوا بين الأطبّاء. كانوا الأكثر لهفة للاطّلاع على العلاج الجديد. وباءت كل محاولاتهم لاختراق فريق عمل فانون بالفشل. كانوا يخشون من ذلك العلاج الغامض، الذي لو أثبت فاعليّته، فسيهدّد شركات الأدوية بالكساد. أنا الآخر حاولوا رشوتي واستمالتي لأبوح لهم بسرّ العلاج، بعد أن وافقتُ على الانضمام لفريق عمل فانون. كنتُ الوحيد من الرّازي الذي طلب منه فانون الانضمام إليه. جواسيس المخابر عرضوا عليّ أرقاما خيالية لأسرّب لهم السرّ. لكنّي أخبرتهم بأنّه يتكتّم على الأمر ولم يُطلع عليه سوى بعض معاونيه المُقرّبين. رجال «فانون» كانوا غرباء يتحدثون لغة غريبة ولا يُكلّمون سواهم. كانوا أربعة، سُود البشرة، يرتدون طوال الوقت أقنعة بيضاء، تتراقص من ورائها عيونهم الباردة.

فانون عاد. عاد ومعه نظريّة جديدة سيبدأ باختبارها في مُستشفى الرّازي. هذه المرّة أيقنتُ تماماً من ذلك، خاصّة وأنا أراه واقفاً على المصطبة الخشبية يتهيّأ لبدء العرض. لاحظت أنّه كان أكبر سنّا ممّا أعرفه عليه من الصّور، وقد تجعّد وجهه قليلاً وغزا الشيب سوالفه. إلاّ عيناه، فقد كانتا تُحافظان على بريقيهما وتنطويان على سخرية لا حدود لها.

«بعد ظهور الجيل الأوّل من مُضادات الذّهان الكلاسيكيّة، وبعد الجيل الثاني، أو ما يُسمّى مضادّات الذّهان غير التّقليديّة، اسمحوا لي، زملائي الأعزّاء، أن أقدّم لكم اليوم: ثورة الkeratine ودون أيّ أعراض جانبيّة»، قال فانون بأسلوب مسرحيّ، ثم صمت وأجال بصره في الحاضرين ليرى وقع كلمته عليهم. سرت همهمات متعجبّة والحضور

مكتبة الفكر الجديد

يتهامسون في ما بينهم، قبل أن يلوذ الجميع بالصّمت، وفانون يعود للحديث:

«الكِيراتين هي من عائلة البروتينات اللّيفيّة، وهي صلبة وتدخل بشكل أساسيّ في تكوين الشّعر والصّوف والأظافر والحوافر والقِرون والأسنان. إنّها موجودة لدى الزّواحف والطّيور والبرمائيات والثّدييات وحتّى لدى النّوع البشريّ.

لقد جرّبنا أخذ عيّنات من شُعور وأظافر مرضى الفُصام والاكتئاب، وقمنا بتحليلها، واحزروا ماذا كانت النّتيجة؟» ثم سكت وبقي يتطلّع إلى العيون في استفزاز.

«لقد اكتشفنا أنّها تعاني نقصاً فادحاً في مادّة الكيراتين. إنّ أهمّ ما يُمكن استخلاصه من هذه النتائج، هو أن النقص المريع في مادّة الكيراتين هو المتسبّب الرّئيسي في تفكّك وحدة الأنا لدى الفصاميين، وتدهور نسبة تقييم الذّات لدى المكتئبين.»

توقّف «فانون» لحظة عن الشّرح، وأشار بيده لأحد مُعاونيه ليبدأ بعرض فلم خاصّ على أحد جدران المُدرّج. أُطفئت الأضواء بغتة وانطلق الفلم الذي كان بالأبيض والأسود.

«أُنظروا إلى هؤلاء الرّجال الأربعة»، علّق فانون، على الشّريط الصامت. «قبل ستّة أشهر، كان ثلاثة منهم يُعانون من مرض *الفُصام*، ورابعهم مُصاب *بالماليخوليا*. أُنظروا إلى حالتهم المزرية. شعورهم شعثاء مقصّفة. أظافرهم المهشّمة والوسخة أقرب ما يكون إلى المخالب منها لأظافر البشر. أُنظروا أسنانهم النّخرة والمُتداعية بعد سنوات من إدمان التّبغ ومضادات الذّهان. هؤلاء الرّجال التّعساء، الذين لفظتهم أكثر

مكتبة الفكر الجديد

من مؤسّسة علاجيّة، بعد الإقرار بأنّ حالتهم «ميؤوس منها»، تمّ أخذهم إلى أرقى معاهد التّجميل، ليتلقّوا عناية خاصّة، وعلاجا مكثّفا *بالكيراتين البرازيلي*.

أُنظروا هذا الشّعر الأكرت كيف صار أملس بعد حصّتين فقط من الفرْد والتّنعيم بالكيراتين. أُنظروا هذه الأظافر المهشّمة كيف صارت صلبة ومهذّبة بعد حصص «*البيديكير مانيكير*.» وحتّى الأسنان، سيّداتي سادتي، أسنانهم نبتت. وهذا الأمر في حدّ ذاته يُعدّ معجزة علميّة.»

كان الشّريط يعرض أربعة رجال سود يتلقّون عناية مكثّفة من طرف فريق كامل من المختصّين في العناية والتّجميل. تمثّلت في جلسات تدليك وتهذيب وتنعيم وحمّامات طين وطحالب، وبالطّبع، جلسات فرد للشّعر بالكيراتين. وينتهي الشّريط بالرّجال الأربعة وهم واقفون يتأمّلون مظهرهم الجديد أمام المرآة.

«والآن إليكم النّتيجة»، قال فرانتز فانون، وأشار بيده ليتوقّف الشّريط وتشتعل أضواء المُدرّج من جديد.

تعالى همس متوتّر من بين الحاضرين، وقد أخذوا يتجادلون بخفوت في ما بينهم قبل أن يومئ فانون بعينيه إلى معاونيه الأربعة في ثقة، ليأتي كل اثنين ويقفا على جانب من جانبيه. «زملائي الأعزّاء، النّتيجة»، قال وتراجع خطوة إلى الخلف. وبتزامن، نزع معاونوه السّود أقنعتهم البيضاء، لتتبدّى وجوههم ناضرة وأسنانهم بيضاء ناصعة تلوح من ورائها ابتساماتهم العريضة وشفاههم المنتفخة بفعل حُقن *البوتوكس*.

«أُنظروا إلى ألوان شعورهم المفرودة والملساء»، راح يقول في حماس: «أحمر ناريّ، أخضر، بنفسجيّ، أشقر. هؤلاء الرّجال ما كانوا

مكتبة الفكر الجديد

ليحلموا قبل ستّة أشهر من الآن، وحتّى وهم في أقصى حالات الهذيان، بإمكانيّة صبغ شعورهم وقصّها بهذا الشكل. أُنظروا كذلك إلى أظافرهم الصّلبة والمهذبة، أُنظروا إلى نقاء بشرتهم. وكل هذا التحوّل له عُنوان واحد، سيّداتي سادتي: الكيراتين، وبلا أعراض جانبيّة»، ختم فانون، ليعاود معاونوه الابتسام وينهض الحُضور وسط عاصفة من الفوضى والجدل والتّصفيق.

* * *

مشروع فانون الذي عاد من أجله إلى الرّازي كان يهدف إلى تحويل أقسام المُستشفى إلى معاهد تجميل ومُنتجعات راحة واستجمام. الفكرة كانت عبقريّة على بساطتها. وتبدو ناجعة إلى أبعد الحدود. لكنّها لاقت صدّا هائلا من قبل لُوبي الأطبّاء ومخابر الأدوية. ووحدها رئيسة القسم الذي أنتمي إليه وافقت على الفكرة. ويبدو أن ذلك عائدٌ لكونها سبق أن حوّلت قسمها إلى صالون حلاقة منذ أمد طويل. لكنّها سرعان ما تراجعت عن موقفها بعد الضّغط الكبير عليها من قبل زملائها. أرباب المخابر كانوا مستعدّين لدفع ملايين الدّولارات لفانون حتى يتخلّى عن أسلوبه العلاجيّ الثوريّ. لكنّه كان مُصرّا على نشره وتعميمه. فلم يبق أمامهم غير تأليب الأطبّاء عليه.

أحداث كثيرة جدّت داخل الرّازي إبّان تلك الأيام التي تلت عرض فانون الأول. راح عشرات الممثّلين التّجاريّين لمخابر الأدوية يتدفّقون على أقسام المُستشفى. كانوا يحملون معهم مئات علب الأدوية الباهظة الثّمن التي وضعوها على ذمّة المرضى بالمجان. لكنّ الأطباء كانوا أكثر المُنتفعين من ذلك الكرم المشبوه. كانت هنالك عشرات المنح للدّراسة

مكتبة الفكر الجديد

في الخارج. مئات تذاكر الطّائرات التي وضعت على ذمة من يُريدون السّفر لحضور منتديات علمية حول آخر الأدوية. دعوات عشاء ومآدب فاخرة وإقامات بنُزل ورحلات ترفيهيّة، وكلّ ذلك لكسر مشروع فانون والإبقاء على سوق الأدوية. لكنّ أغرب ما وقع منذ ذلك العرض المثير، كان عودة سْليّم عَمّار، غريم فرانتز فانون، الذي تسبّب في إبعاده عن مُستشفى الرّازي أواخر الخمسينات.

رؤساء الأقسام، إلى جانب مُديري مخابر الأدوية، قرّروا، في اجتماع سرّي، إيقاظ «الجزّار» من سُباته، وإرجاعه حتى يقودهم في حملة التّصدّي لمشروع فانون. كانت هنالك سوق ضخمة للأدوية يُمكن أن تختفي. ورغم أنّ الكيمياء لم تستطع إلى اليوم إبراء مريض واحد من مرضى الفصام، فإن الأطبّاء لم يكونوا مُستعدّين لتجريب شيء بديل.

كان لدى فانون يقين من أنّ الأموال الطّائلة التي تُنفق على أدويةٍ ستظلّ تلازم المريض طيلة حياته، يُمكن أن تُصرف على شكل آخر من أشكال الرّعاية، التي ستُحسّن وضعه المعيشيّ، وتُدخل الفرح والبهجة على حياته البائسة أثناء مدّة الإقامة بالمُستشفى وحتّى خارجه. إنّ وجبة دسمة وحمّاماً ساخناً ولباساً نظيفاً وبعض المرح والتسلية، وخاصّة حُسن المعاملة، يمكن أن تعود على مريض الفصام بالنّفع أكثر من كلّ الأدوية التي يبتلعها أو يُحقن بها غصبا، ليمكث ممدّداً غائباً على سرير تفوح منه رائحة البول والتبغ، أو يضطرّ للوقوف وراء قضبان شباك قصِيّ، يستجدي من ورائه الرّائح والغادي، راجيا سيجارة أو جرعة قهوة.

عرض فانون الثّاني كان بعد أسبوعين من موعد العرض الأول. كان مُنتظراً أن يُفصّل فيه جيّداً أهمّ أطوار البروتوكول العلاجيّ. لكنّ

مكتبة الفكر الجديد

المدرجات هذه المرة كانت خالية إلاّ من بعض المرضى الذين جلبهم الشعور بالفراغ وسأم الأقسام. وفي الخارج، أمام باب المُدرّج، وقف سليّم عمّار رفقة زبانيته الذين كانوا يترصّدون أيّ طبيب شغوف تسوّل له نفسه الدّخول والاستماع إلى مُداخلة فرانتز فانون. كان الرّاجع الآخر يرتدي بذلته المميزة التي تشبه بذلة الجزّارين، ومعه أربعة شُبّان مُقيمين، انتدِبوا خصّيصاً من قسم الكسور المُضاعفة من مستشفى القصّاب القريب، لتهشيم عظام كل من يلتحق بفانون. لكنّ الذين أعادوا الجزّار إلى الرّازي، لم يستطيعوا إعادته إلى الحياة تماما. كلّ ما استطاعوا فعله هو أنّهم أخرجوه من قبره ولفّوه في أربطة بيضاء وجعلوه قائماً في تابوت خشبي محنّطاً كالمومياء. كان جامداً لا يتحرك كفزّاعات بيوت الرّعب في مدن الملاهي. إلاّ عيناه الزرقاوان، فقد كانتا تُشعّان ببريق وحشيّ مخيف يُجمّد الدّم في العُروق.

وفي داخل القاعة كان العرض ممتعاً ورشيقاً كما في المرّة الأولى. إلاّ أنّ فانون، هذه المرّة، وجّه نقداً شديداً للطّبّ النّفسيّ الحديث، اتّهم فيه مخابر الأدوية العالمية بتحويل الأطبّاء النّفسانيّين إلى تقنيّين لترويج الدّواء، وباستحداث تصنيفات مرضيّة جديدة تستوعب أقصى قدر ممكن من السّلوكات البشرية التي سيقع التّعامل معها كاضطرابات لابدّ من علاجها كيميائيّاً. كان تحليله مرعباً ودقيقاً ومسنوداً بالرّسوم البيانية والإحصائيّات، ولكن بما أنّ لا أحد من المعنيين بتلك المعلومات القيّمة كان حاضراً بالقاعة، فإنّ كلّ ما كان يورده كان يصيب بعض الفُصاميّين الحاضرين بنوبات ضحك فجائية، كانت تُعدي فانون، لينخرط بدوره في الضّحك الجنونيّ، قبل أن يستأنف مداخلته العبثيّة.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

بعد انتهاء العرض الثاني الذي قُطعت فيه أضواء المدرّج أكثر من مرّة لأسباب مجهولة فإنّ إدارة المستشفى رفضت طلب فانون تمكينه من المدرّج لعرض ثالث، بتعلّة أنّه محجوز طوال الأشهر الثلاثة القادمة لتقديم دروس ومحاضرات حول العلاج بالكيمياء. كانوا يُمارسون عليه ضغوطات عدة لحمله على مغادرة المُستشفى مثلما فعلوا معه منذ أكثر من نصف قرن.

أنا الآخر رحتُ أتعرّض للمضايقات بسبب تعاوني معه. وباستثناء المرضى، وليزر، صديقي السّحلية، فإن لا أحد عاد يُكلّمني داخل القسم، وصارت هناك مراقبة دقيقة على أوقات دخولي وخروجي. وعلى حين غرّة كانت رئيسة القسم تقتحم مكتبي في محاولة لضبطي مُتلبّساً بشيء مّا. فإذا ما عثرت عليّ في مقابلة مع أحد المرضى فإنّها تُناديني إلى مكتبها لتنبّهني إلى كوني أقضّي وقتاً أطول من اللازم مع المرضى. أما إذا ما عثرت عليّ وحيداً فإنّها تقول لي إنّني لا أعايد ما يكفي منهم، ولم يتوقّف الأمر عند ذلك. لكنّ أخطر ما وقع لي هو سرقة سلّة القمامة من مكتبي. سلّة القمامة كانت الشيء الوحيد الذي طلبته من إدارة المُستشفى، ولكن حتّى ذلك الطلب التّافه امتنعوا عن توفيره لي. ممّا دعاني إلى شراء واحدة بنفسي. كنتُ فرحاً بالحصول على واحدة جديدة، وكنتُ دائماً ما أحرص على نظافتها وأضع داخلها كل مرة كيساً جديداً أغيّره كل يومين. وكان بإمكاني لشدّة نظافتها أن أرى وجهي في قاعها الأحمر اللامع.

أحسست أنّهم شعروا بالخوف وحتّى ببعض الذّنب بعد أن سرقوا سلّة قمامتي التي اشتريتها بمالي الخاصّ، دون أن يفهموا سرّ تعلّقي بها

مكتبة الفكر الجديد

ولا سبب كلّ الغضب الذي ظهر عليّ لفقدها. كانت أهمّ قطعة في المكتب، يستحيل العمل من دونها، وكنت أستعملها للقيء خاصّة، حين أكون مصابا بصُداع الخُمار. وحين هدّدتهم بأنّني لن أعايد مريضاً واحداً إلاّ بعد أن يُرجعوا لي سلّة قمامتي، عثرت عليها ملقاة، أمام باب مكتبي، بعد أسبوع. كانت في حالة مُزرية، شديدة الوسخ، وقد تشوّه قاعها بفعل أعقاب السجائر التي ألقيت فيها وهي لا تزال مُشتعلة. وأمام ذلك المشهد الصّادم أفرغت كل ما في جوفي على الأرض، ثم دفعت باب مكتبي ودخلت وأطبقته بقوة، تاركاً خلفي سلّة قمامة مشوّهة وقيئاً كثيراً.

* * *

لم أكن أتخيّل أن بركة القيء التي تركتها المرة الفارطة أمام باب مكتبي ستكون مقدّمة لنوبات قيء أخرى ستندلع في كلّ مرة أواجه فيها موقفا مزعجا. تقيّأتُ مرّة في اجتماع القسم الأسبوعيّ، الثامنة والنصف صباحا، منذ أن بدأنا الاجتماع. وتقيّأتُ مرّة بعد أن اقتحمت عليّ رئيسة القسم مكتبي صحبة مدير المُستشفى وناظر قسم الاستعجالي. كنتُ وقتها أعايد مريضاً مكتئباً، كان يحدّثني عن إحساسه المؤلم بأنّه صار شخصاً غير مرئيّ لشدّة أن لا أحد ينتبه له، أو يعيره شأنا. لمّا دخل الثلاثة، دون استئذان، وكانوا يتناقشون في ما سيفعلونه بمكتبي الذي يخطّطون لهدم أحد جدرانه لضّمه لقسم الاستعجالي. وأمام تلك الوقاحة وذلك التّجاهل الصارخ، خاصّة أمام المريض، تقيّأتُ في وجوه الثّلاثة، والمريض معهم، ثم اعتذرت وغادرت نحو المرحاض راكضاً بعد أن تركتهم مع المريض والقيء.

مكتبة الفكر الجديد

بعد ذلك لا أحد صار يتعرض لي وبات الكلّ يتحاشاني. كنتُ أتقيّأ في وجه كلّ من يحاول إزعاجي. ثم صرتُ أستلذّ لعبة القيء. وبتُّ أمعن في ذلك إذ ألتهم أطعمة يؤدّي إرجاعها إلى انبعاث روائح مقرفة وألوان أشد قرفا. وبلغ بي الأمر أحياناً إلى إعداد طبخات خاصّة لكلّ شخص. وجهي صار مُمتقعاً وأصابني الهُزال من شدة القيء، لكن لا أحد بعد ذلك كان يتجرّأ حتّى على الدّخول إلى مكتبي لمعرفة إن كنتُ قد جئتُ للعمل أم لا.

وحده ليزر، السّحلية، صديقي المُحلّل النفساني اللاّكاني، ظلّ يكلّمني. واقترح عليّ إجراء حصص تحليل نفسيّ ليخلّصني من حالتي المرَضية التي نسيت فيها الكلام وتحولت إلى ما يُشبه أنبوب مجارير. لكنّي كنتُ أرفض بشدة وأتقيّأ في وجهه أحيانا. كان يُريد تخليصي من عَرَضي، وإعانتي على استرداد قدرتي على نثر الكلام. أمّا أنا فلم أكن أرى موجباً لذلك. كنتُ مُرتاحاً في وضعي الجديد، رغم تدهور صحّتي البدنيّة. وحاولتُ أن أشرح له أنّ أسلوبه العلاجيّ لن يُجدي نفعاً معي. فلن تؤدي إعادة أنسنتي إلاّ إلى عودة المضايقات من جديد. فنثر السُكّر على البراز لن يجعل منه حلوى بقدر ما سيزيد في جذب الذباب نحوه. والمرءُ لمّا يعيش في خندق من النّتن ما عليه إلاّ أن يتحوّل إلى طرّادة ماء ليُدافع عن نفسه. ليزر، الواثق دائماً، كان يعتقد كذلك أنّني لو غيّرت أسلوب خطابي فإنّني سأتمكن حتما من التأثير على محيطي وتغيير الآخرين من حولي. ويمضي في شرح الأمر نظريّا مما كان يزيد في حدّة قيئي. لكنّ هذا لا يعني أنّ تحليله اللاّكاني لم يكن صائبا أحيانا. أذكر أنّه لفت انتباهي إلى أمرين كنتُ قد وافقته فيهما تماما.

مكتبة الفكر الجديد

«ما هو جمع دكتور»؟ كان قد سألني مرّة، أثناء إحدى نقاشاتنا. «دكاترة»، أجبته وأنا لا أرى إلى ما يرمي.

ثمّ إنّه سألني ثانية: «ما هو جمع ديكتاتور»؟ في تلك المرة لم أجبه مباشرة، وأنا أبحث عن صيغة الجمع لكلمة «ديكتاتور»، قبل أن تبرق كلمة «دكاترة» مرّة أخرى في ذهني، وينكشف لي ما كان يريدني أن أراه. «يا إلهي»، هتفتُ به. «هذا يُفسّر كلّ شيء في ما يخصّ حمّالة الخُصى. هذا يَفضح الدّيكتاتور الكامن في نفس كلّ دُكتور، فما بالك لو تكتّل الدكاترة جميعهم ووقف وراءهم لُوبيّ المال وشركات الأدوية. هذا فظيع. فظيع.»

أحسست أن ليزر استملح ردّة فعلي، فواصل مُتحمّساً يشرح لي أمراً آخر:

«إنّ لقب «رئيس القسم» يُقابله في الفرنسية *chef de service*، وكلمة «شاف»، كما تعلم، تعني الرئيس بالعربية، مع كلّ ما تنطوي عليه هذه الكلمة من تغطرس. لكنّ السرّ يكمن في كلمة «سرفيس». أعتقد أن لا أحد انتبه إلى اليوم إلى أنها كلمة مركّبة. فكلمة *service* هي إدغام لكلمتين. *servir* و*vice* وبالتالي فإن *ser-vice* تعني في الأصل *servir le vice*، أي خدمة النّزوات. وهذه للأسف حقيقة رؤساء الأقسام في كل مكان. إنّهم أشخاص مرضى لا يخدمون إلاّ نزواتهم ويستعملون الآخرين ويستغلّونهم استغلالا فاحشا. كنتُ لهول الاكتشاف سأخرج للرّكض داخل القسم وأصدع آذان الجميع بالحقيقة الرهيبة. لكنّني بدلا عن ذلك تقيأتُ مرّتين مُتتاليتين.

* * *

مكتبة الفكر الجديد

لمّا ضبطتُ الأمور في القسم وتأكّدت من أن لا أحد سيضايقني مُجدّدا، عاودتُ الانضمام لجبهة فانون. في الأثناء كان هو قد قام بأكثر من اجتماع عامّ دعا فيه الأطبّاء الشّبّان إلى التمرّد على رؤساء الأقسام والانضمام إليه وتقديم مصلحة المرضى على مصلحتهم الخاصة. لكنّ تلك الدعوات كانت تذهب هباء، ولم يكن يحضرها غير بعض المرضى المتضجّرين، تحت أنظار سليّم عمّار وزبانيته الأربعة الذين كانوا يطوفون به كالفزاعة وينصبُونه عنوانا للرُّعب في كلّ مكان.

ورغم كلّ العراقيل فإن فانون لم ييأس ولم يُغادر الرّازي هذه المرّة. ظلّ يأتي كلّ صباح إلى المستشفى، متأنّقاً كعادته، ليجلس في حديقة البرتقال، رفقة معاونيه الأربعة وبعض المرضى، عند تلك الطّاولة الثّابتة التي تقع قبالة الطّاولة المفخّخة. كان الجوّ مرحاً عند طاولة فانون. كلّ يوم يظهر معاونوه الأربعة بتسريحة شعر مختلفة. كانوا يبْدُون فرحين وفخورين بشعورهم الملوّنة القابلة لأي تسريحة بفضل حصص الفرد والتّنعيم بالكيراتين. وشيئاً فشيئاً أخذ عدد المرضى المنضمين إليهم يتزايد. كانوا يقضّون اليوم في الضّحك من سيئي الحظّ الذين يأتون للجلوس على الطاولة المُفخّخة. حتّى أن اثنين من زبانية سليّم عمّار قد وقعا في فخّها وعُلّقت أرجلهما. كان الجزّار قد أرسلهما لتعقّب فانون والتلصّص عليه. وباستثناء ذينك البغلين، فإنّ كلّ مريض كانت تنقلب به الطّاولة ويضحك منه الآخرون، كان معاونو فانون يهرعون إليه ويعاونونه على النهوض، ويدعونه للانضمام إليهم ليضحك بدوره على غيره، بعد أن كان هو الآخر موضوعاً للضّحك.

قال لي الزّنجي العنيد إنّه يُجرّب خطّة جديدة لقلب الأمور في

مكتبة الفكر الجديد

الرّازي، تعتمد أسلوب العلاج بالضّحك. ثم شرح لي إنّه كان مُخطئاً في رهانه على الأطبّاء، لأن لا أمل في تغييرهم. بيد أنّه لو استطاع ضمّ جميع المرضى إلى صفّه فإنّه سيحْمِلهم على القيام بإضراب عن الدّواء، يطالبون من خلاله بتطبيق مشروع الكيراتين.

ظلّ عدد المرضى حول الطّاولة يزداد باستمرار. وأصبحوا بمعنويات مُرتفعة مع مرور الأيّام، فقد جرّب أغلبهم السّقوط قبل أن يعرفوا تجربة الضّحك. ومن الجهة الأخرى كان سليّم عمّار وزبانيته يزدادون قلقاً أمام تنامي عدد المرضى حول طاولة فانون. إلى أن بلغ الأمر رؤساء الأقسام وأغاظهم ذلك بشدّة، فأصدروا أوامر تحجّر على المرضى مغادرة عنابرهم. لكنّ نوبات الضّحك ظلّت تندلع حتى داخل الأقسام. كان المرضى يُفخّخون الكراسي هناك ويُواصلون لوحدهم لعبة التّشقلب المُسلّية. وبادر بعضهم بتقليد رجال فانون إذ صبغوا شعورهم بألوان مُختلفة مستعملين مرق الطّعام وحتّى الجير الذي أتوا به من الحيطان المتهرّئة. في أحد الأقسام كذلك أحرقوا الحشايا وصبغوا وجوههم بالسّخام الأسود اقتياداً بفانون وأعوانه. كان الكلّ يطمح لأن يصبح عملاقاً أسود ويُريد أن تكون له تسريحة شعر متميّزة.

* * *

الثّورة اندلعت في الرّازي.

بعد أسبوعين من انطلاق الخطّة البديلة، انتقلت عدوى الضّحك إلى أغلب المرضى داخل كلّ الأقسام دون استثناء، وبلغت الحرب ذروتها بين الجبهتين. إدارة الرّازي قامت بإجراء عاجل يقضي بترميم أو استبدال كلّ قطعة أثاث تالفة بالمستشفى. وهو أمر لم تُقدم عليه البتّة على امتداد

مكتبة الفكر الجديد

تاريخها. أما في ما يخص طاولات حديقة البرتقال فقد وقع اقتلاعها كلّها عن بكرة أبيها، السّليمة منها والتّالفة.

كُنّا ارتبكنا قليلا حين فوجئنا باختفاء الطّاولات ذات صباح. لكن فانون قال إنّه كان يتوقّع مثل ذلك الإجراء. ورغم ذلك فقد واصلنا التّجمهر في نفس المكان، جالسين على العُشب أحياناً للاستراحة أو منقلبين على ظهورنا ماسكين بطوننا من شدّة الضّحك. وحتّى حين لم تعد هنالك طاولة مفخّخة، فإنّ ذلك الأمر في حد ذاته تحوّل إلى سبب للضّحك. كان فانون يُحافظ على نسق جيّد من الإضحاك، إذ يقرأ على المرضى، الذين تحلّقوا حوله، بعض المقاطع من «موجز تاريخ الضّحك»، وهو كتاب انقطع إلى تأليفه طوال الخمسين سنة الماضية التي كان فيها غائبا عن الأنظار. كان يروي النّكات والطّرائف عن الثّورات والشّعوب والصّراعات والأعراق والطّبقات والتّاريخ والحروب والسُّلطة والأجناس والفلسفات والنّظريات، وكان كلّ ما يرويه مضحكاً وشديد السُّخر. وكانت حكاياته تنتشر بسرعة فائقة وتصل إلى المرضى المقموعين داخل العنابر المُغلقة. هناك، كانت المقاومة على أشدّها. جيش من العابسين مِن مُمرّضين وأطبّاء، في مواجهة عشرات المرضى الذين استحوذ عليهم المسّ البهيج والهذيان بالإله الزّنجيّ، حتى أنّ بعضهم كان يتلوّى على الأرض ويكاد يختنق من فرط القهقهة. كان الأطباء يأمرون بعزل أكثر المرضى هيجانا ولكن ذلك لم يكن يزيد الآخرين إلاّ ضحكاً وفوضى. صار الوضع خارجاً تماماً عن السّيطرة. ضحك في اللّيل والنّهار. ضحك من كلّ شيء. وحتى حين يتعب المرضى وتكلّ أفواههم وتعلق في وضع الانفراج، فإنّ ذلك لم يكن يزيدهم إلاّ ضحكا. وأثناء النّوم أيضاً كانوا يحلمون بأنّهم يضحكون.

مكتبة الفكر الجديد

ونتيجة لذلك فقد سجّل المُستشفى في ظرف ثلاثة أيّام خمس حالات موت بسبب الاختناق بجرعة ضحك مضاعفة. ما دعا وزارة الصّحّة إلى إعلان حالة الطّوارئ وعزل مُستشفى الرّازي خوفا من أن تنتقل العدوى إلى الخارج.

* * *

بات الأمر يُشبه حرب الاستنزاف، لاح فيها العابسون أطول نفَسا. في داخل الأقسام كان المرضى ممدّدين على الأرض في كلّ ركن، منهكين من شدّة الضّحك وقد دخلوا في حالة من الإغماء تُشبه الكاتاتونيا. لكن ما إن تُحرّك أحدَهم أو تُحاول إيقاظه حتى يعود للقهقهة وكأنّ تيّاراً كهربائيّاً صعقه. وفي الخارج، وسط حديقة المُستشفى الرّئيسيّة، حيث بؤرة الضحك، كنتُ وفانون، وقرابة الخمسين مريضاً غير مُقيم، بصدد تجريب الضّحك بالتّناوب ادّخاراً للجهد. كان «مُوجز تاريخ الضحك» قد نفد، واضطرّ فانون إلى إعادة قراءته أكثر من مرّة. ولمّا خفّت الاستجابة بفعل التّعوّد، اقترحتُ أن يحكي كلّ واحد منّا نكتة أو طرفة. وهكذا استمرّت المقاومة.

لم أكن أعرف إلى ماذا ستنتهي الأمور، لكنّني كنتُ متيقّنا أنّ الذي يحدث إنّما هو أمر نادر الوقوع وعظيم، كنتُ قد نسيت في خضمّه نوبات القيء التي يبدو أنّي شُفيتُ منها تماما. كنتُ كذلك ألمح قلقاً خفيّاً على وجه الزّعيم أحيانا. وكان القلق يبدو على معاونيه أيضاً. وحسبتُ ذلك متعلّقاً بانخفاض نسق الضّحك وبداية نفاد مخزون النّكات. لكن حتى حين انضمّ إلينا عشرون نفسانيّا حسموا أمرهم وغادروا أقسامهم ليلتحقوا بفانون وجبهة الضّحك، جالبين معهم كفاية

مكتبة الفكر الجديد

شهر أو يزيد من الفكّه، فإنّ الزّعيم الزّنجي بقي على قلقه الذي تجلّى واضحاً في ضحكاته المتوتّرة. إلى أن حدث الأمر الذي كان يتوقّعه ويخشاه دون أن يبوح به لأحد. عشرات الشّاحنات عليها رموز مخابر الأدوية راحت تتدفّق على الرّازي لتُفرغ حمولاتها المشبوهة في مخازن الأقسام وسط تكتّم كبير وحراسة مشددة.

«الأوغاد، يبدو أنّهم سيفعلونها.» كان هذا آخر ما قاله الزعيم، قبل أن يبدأ الهجوم الحقير.

* * *

Lithium.

ليثيوم في كل مكان. ليثيوم في الطّعام، في القهوة، في ماء الحنفيّة. ليثيوم حتى في علب التّبغ. الأوغاد، ضخّوا ملح الليثيوم في كلّ شيء. وفي داخل الأقسام كانت المجزرة أكثر من بشعة. مخابر الأدوية نزلت بكلّ ثقلها. أخذ الأطباء يصفون للمرضى جرعات مضاعفة من مضادات الفرح: أولنزابين، كلوزابين، هالدول، والليثيوم المرّ. لكنّ ذلك كان البداية فحسب. لأنّ الرّازي تحول إلى «أوشفيتز» أخرى حين بدأ الأطبّاء باستعمال غاز الليثيوم. كانت المخابر قد زوّدت الطّاقم الطّبيّ بالأقنعة والبدلات الواقية والمرشّات الآلية قبل أن يبدأ الهجوم بالغاز.

الهجمة كانت مروعة ووحشيّة. مع أن الصّياح والضّحك بقيا يتردّدان في كلّ ركن من كلّ قسم لأيّام وأيّام، قبل أن تأخذ المقاومة في الانهيار. بعض المرضى ممّن لم يكن يؤثّر فيهم غاز الليثيوم، كان الممرّضون يقيّدونهم ويقطّره الأطبّاءُ سائلا في أعينهم ويحقنونهم به عبر إبر طويلة تُدقّ في قلوبهم مباشرة. وسُرعان ما بدأت الأعراض الجانبيّة

مكتبة الفكر الجديد

للاستعمال المُفرط لملح الليثيوم تظهر على المرضى. نوباتُ قيء وحالات إسهال حادّة حوّلت الأقسام إلى مراحيض جماعية وجعلت الطّاقم الطّبي يعوم ويتخبّط في الخُرء والقيء. كان ذلك ينعش روح الضّحك لدى المرضى خاصّة لمّا يزلق أحد الأطبّاء في الخُرء ويسقط على مؤخرته ويعاود الانزلاق مجدّداً لمّا يهمّ بالنّهوض في عصبيّة. لكنّ عدداً لا يُستهان به من المرضى استشهدوا ووافتهم المنيّة بعد أن أُصيبوا بفشل كلوي بسبب كمّيات الملح الهائلة التي تكلست في كلاهم. وفي ظرف أسبوعين تمّ القضاء نهائيّا على ثورة الضّحك داخل الأقسام.

صارت هناك مناحات جماعيّة. أقسام الرّازي تحوّلت إلى جنازات بفعل مضادّات الفرح. الأطبّاء والممرّضون يفضّلون المرضى المكتئبين على المرضى المبتهجين. مريض الاكتئاب يُعاني من بطء نفسيّ وحركيّ ممّا يجعل السّيطرة عليه والتحكّم فيه أمراً سهلاً. وحتى إن كان خطر الانتحار لدى المُكتئبين مُرتفعا. فانتحار أيّ مريض يُعدّ مكسبا للطّبيب الذي سيُعايد مريضاً أقلّ.

المقاومة انهارت، الثّورة أُعدِمت، وكاد الحزن أن يعمّ، لولا الأمل الزّنجي الذي ما يزال ينبض في حديقة البرتقال. هناك، كان فانون يزأر كسبع ويخطب بأعلى صوته:

«إنّهم يريدوننا أن نكون تُعساء، مُحبَطين، مُكتئبين. وعلينا نحن أن نفرح حتى نتمكّن من مقاومتهم. فإن قدَرْنا أن نفرح ونضحك، لن يهزمنا أحد»، ختم الزّعيم كلمته الحماسيّة، ليندلع هتاف عتيد والكل يردّد:

«لن يهزمنا أحد.»

* * *

مكتبة الفكر الجديد

لبثنا نُقاوم أسبوعين آخرين. اعتصمنا بحديقة البرتقال ليلَ نهارَ. رجال فانون الأربعة كانوا قائمين بكلّ شيء. ضربوا الخيام ونصبوا المتاريس حول مكان الاعتصام وقاموا بتزويدنا بالطّعام الضّروريّ والماء الصّالح للشّراب، ووقفوا يؤمّنون مداخل الاعتصام حتى لا يخترقنا المندسّون. كانت المعنويات لا تزال عالية رغم تقلّص نوبات الضّحك في صفوف المعتصمين. لاحظت أنّنا كنّا نضحك أكثر أثناء اللّيل لما نوقد ناراً ونتحلّق حولها مُستمعين لحكايات الإله الزّنجيّ. وعلى الجهة المقابلة من الحديقة الواسعة نشأ تجمّع آخر سرعان ما أخذ يكبر. سليّم عمّار وزبانيته الأربعة كانوا النّواة الأولى لذلك التّجمّع المُضاد. وسرعان ما أخذ الأطبّاء يتوافدون على المكان. وما هي إلاّ ساعات حتى جاء ممثّلو مخابر الأدوية للتكفّل بمصاريف ذلك الاعتصام. كانوا مُستعدّين لضخّ ملايين الدينارات حتى يفشل *مشروع الكيراتين*.

ضربوا خياما من فئة ستّة نجوم. جاؤوا بمصابيح أحالت اللّيل نهاراً ونصبوا مضخّمات الصّوت فاعلين ما في وسعهم للتّشويش علينا. تحوّلت الجهة المقابلة إلى تيراس فندق يحتضن سهرة VIP. ووضعت طاولات عليها أصناف من الأطعمة تتراوح بين حلو ومالح وأنواع مختلفة من المشروبات والعصير وحتّى الخمور. وفي قلب ذلك التّجمّع الـVIP نُصب تابوت سليم عمّار الخشبيّ كالطّوطم، ومن خلفه لافتات إشهارية ضخمة لشركات الأدوية. وتحت عيني الجزّار اللّتين كانتا تومضان ببريق أزرق مُرعب تداولت على المنصّة ستّ حسناوات يرتدين ألبسة خليعة، هنّ ممثّلات مخابر الأدوية، اللاّتي تفنّنّ في عرض بضاعتهنّ وسط تصفيق الأطبّاء الذين كانوا يُقبلون على الطّعام في نهم مُقرف. وعلى امتداد أسبوع كامل أنفقت شركات الأدوية على اعتصام

مكتبة الفكر الجديد

القُحب ذاك ما يكفي لبناء قسم جديد في المُستشفى. كانوا مُستعدّين للذّهاب أبعد لولا أنّهم لاحظوا أنّ عزيمتنا لا تُقهر. وهكذا، دون مقدمات، ذات صباح، أفقنا لنجدهم قد اختفوا. أذكر أنّنا ابتهجنا وأطلقنا صيحات نصر، باستثناء فانون، فقد كان قلقاً وكأنه يتوقّع أمراً مّا.

* * *

طائرة.

لا أحد كان يتوقّع أن يستعملوا طائرة لمهاجمتنا. بالطّبع، لا أحد باستثناء الإله الزّنجيّ الذي استشعر الخطر بعد انصراف جوقة القُحب. حينما ظهرت الطّائرة في سماء الرّازي كان سليّم عمّار وزبانيته الأربعة، وهم كلّ من تبقّى من التّجمّع المضاد، بصدد وضع أقنعة الغاز على وجوههم. حتى المومياء ذات العينين المُرعبتين وضعوا لها قناعاً على وجهها العابس.

كان ظهور الطّائرة في سماء ذلك اليوم الصّافي أشبه ما يكون بالذّبابة القذرة على سطح زجاج نظيف. كان أغلبنا قد أفاق من النّوم للتوّ. والبعض الآخر ممّن أنهكه السّهر والوقوف على أمن الاعتصام يستعدّ للنّوم، لمّا حلّقت الطّائرة فوقنا بشكل منخفض. مرورها القريب أوّل مرّة أيقظ بقيّة المعتصمين وجعلهم يغادرون خيامهم مُترنّحين. راح الجميع يُتابعونها في قلق وهي تبلغ الأفق ثم تلتف في دورة واسعة وتعود لتتّجه نحونا بتحليق أكثر انخفاضاً. كانت طائرة صغيرة تُشبه واحدة من تلك الطّائرات التي تُستعمل في رشّ الحقول بالمبيدات الحشريّة. بعضنا سعى

مكتبة الفكر الجديد

بحركة غريزيّة إلى التقاط شيء مّا لقذفها به والبقيّة تحفّزوا، ولا أحد وجد تفسيراً لظهورها الغامض في سماء الرازي.

«تفرّقوا. أُهربوا. أُهربوا»، صاح فانون وهو يبرز من بين المُعتصمين. ولم يُكمل الزعيم كلماته حتّى أطلقت الطّائرة مرشّاتها نحونا ملقية فوقنا غازاً ثقيلاً هبط على ساحة الاعتصام التي ابتلعتها غمامة بيضاء معمية.

سحابة الليثيوم أصابت المُعتصمين بالاختناق وجعلت البقية يتخبطون في عمى وفوضى. البعض ممّن استنشق كمّيات كبيرة من الليثيوم بدأت تظهر عليه الأعراض الجانبيّة. رأيت من تبرّز في سرواله وسقط على الأرض، وآخرين انتابتهم نوبات قيء ودموع جعلتهم يجثون على الرّكب يستفرغون. لمحت كذلك إثنين من أعوان فانون منطرحين على الأرض هامدين. الطّائرة أفرغت شحنتين هائلتين فوق مركز الاعتصام قبل أن تدور حول نفسها وتهبط بشكل رأسيّ نحو فانون مباشرة لتطارده دون غيره. كان الطيّار يقوم بمناورات صعبة وهو يُلاحق الزعيم، مصوّبا نحوه ماسورتين مخيفتين راحتا تطلقان غازاً كثيفاً. الواضح أنّهم قرّروا تصفيته هذه المرّة، وقد علمتُ في ما بعد أنّ الطيّار الذي كلّفوه بتلك المهمة كان المُخاطِر نفسهُ الذي استخدمه ألفريد هيتشكوك في North by northwest. وقد دفعوا له عشرة أضعاف ما دفعه له هو في ذلك الفلم.

كان الإله الزّنجيّ يُراوغ راكضاً بشكل مُتعرّج ليُفلت من رشّاشات الغاز. وأحياناً يرتمي على الأرض لتمرّ الطّائرة على مسافة قريبة من رأسه. سعل لاهثاً، مُتعرقاً، راكضاً كفهد يفرّ بجلده من شبكة صيد غادرة تُرمى عليه من فوق.

كنتُ قد قطفت بعض ثمار البرتقال ورحتُ أُوزّعها على المُعتصمين

مكتبة الفكر الجديد

طالبا منهم معسها وفرك وجوههم بها وامتصاص عصيرها الذي يحدّ من تأثير الليثيوم، لمّا رأيتُ الزعيم طريحاً على الأرض والطّائرة تنفث في وجهه سمومها جيئة وذهابا. كان يبدو فاقداً الوعي أبيض كتمثال من شمع. هرعتُ إليه أتفقدّه. تنفّس كسمكة خارج الماء. شطرت برتقالة إلى شطرين ورحت أدعك وجهه بعصيرها لأزيل عنه طبقة الليثيوم السّميكة لما عادت الطائرة ترجمنا بسمومها في غارة جديدة. لكنّها ما إن اقتربَتْ هذه المرّة حتى كان أحد رجال فانون في انتظارها بحبل نزعه من إحدى الخيام وراح يدوّره بخفّة كالكاوبوي ليطوّح به نحو عجلات الطّائرة. التفّت الأنشوطة حول الهدف والطائرة تعاود الارتفاع لتأخذ معها الرّجل الذي راح يتسلّق الحبل متدلّيا في سماء الرّازي كالعنكبوت. تأرجحت الطّائرة الصّغيرة بفعل الثّقل الزّائد وقائدها يُناور للإلقاء برجل فانون على الأرض، لكنّ الزّنجيّ العنيد واصل التعلّق بالحبل حتى أدرك هيكل الطائرة التي غابت خلف الأفق لنسمع دويّ انفجارها في ما بعد، ويتراءى لنا خيط أسود من الدّخان يصّاعد من بعيد.

تنفست بصعوبة بعد الغارة الأخيرة. كنتُ بالكاد أرى. لكن ما إن انقشعت سحابة الليثيوم قليلا حتى لمحتُ فانون مُنطرحاً بجانبي مُنقطع الأنفاس. عُدتُ لمعالجته بالبرتقال في هيستيريا ضاغطاً على صدره لإسعافه. ضغطتُ بأقصى جهدي في تتابع لكنّه لم يستجب.

«لا يُمكن أن تفعلها مرّة أخرى. هيّا، ارجع إلينا. نحن نحتاجك»، هتفت به في هلع مواصلا الضّغط على صدره وقد راح من تبقّى من النّاجين يتجمّعون حولنا في صمت حزين.

«هيّا أيّها الزّنجيّ العظيم. لا يُمكن أن تتخلّى عنّى الآن. ليس بعد

مكتبة الفكر الجديد

الذي كان. انهض. لقد انتصرنا عليهم بإرادة الضحك. هيّا انهض. انهض أيّها الإله الضّاحك واكشف عن أسنانك النّاصعة، واضحك. هيّا»، قلتُ وانفجرت باكيا ورحتُ أدقّ على صدره بعنف. «انهض، انهض»، وأخذتُ أصفعه، ليمسك بي الرّفاق ويمنعوني من مواصلة القيام بذلك.

كان الزّعيم يرقد في سلام على العُشب. على وجهه شبح ابتسامة غامضة وجفناه مُسدلان في سكون. تنحّيتُ من فوقه وتمدّدتُ حذوه مُحدّقاً في سماء الرّازي الصّافية. كنتُ أشعر بغصّة وحزن هائلين. لكنّي مسحتُ دموعي وأغمضتُ عينيّ متذكّراً كلمته الأخيرة: «... إنْ قدَرْنا أن نفرح ونضحك، لن يهزمنا أحد.»

«سأحكي لك طرفة أخيرة عن الأوغاد، وستسمعني أينما كنت. سأحكي لك عن قذارتهم وستضحك. ثم استرسلت: «كنتُ دائماً أعتقد أنّ الأطباء أشخاص لا يملكون قلوبا. لكنّي لم أتخيّل يوما أن يكونوا محشوّين بالخُصى.» وانفجرت ضاحكاً رغم الدّموع التي لم تجفّ بعد على خدّي. «هل تتصوّر؟ رئيسة قسمي مثلاً ليست كائناً بشريّاً. إنّها مُستودع للخُصى. هاهاهاهاهاها. إنّها كائن أجوف بليد مسكون بالخصى الباردة. ربّما قد يُفسّر هذا انعدام الرّأفة لدى الأطبّاء. لقد تخلّوا عن قلوبهم وزرعوا مكانها خصى رخوة لا تنبض إلا عند سماع رنين النقود. هاهاهاهاهاها.» ومضيت في قهقهة جنونية جعلت دموعي تعود للجريان بلا توقّف.»

«أعتقد أنّي لن أبقى في الرازي يوما آخر بعد اليوم»، قلتُ بعد أن كففت عن الضّحك. «لا يُمكن لي أن أواصل العمل في هذا المسلخ النّفسيّ.» لكن ما إن أنهيتُ جُملتي حتى سمعتُ حشرجة وسُعالا قويّا

مكتبة الفكر الجديد

أعقبه صوتٌ مألوف يسألني بأسلوبه السّاخر المعهود: «هل قُلتَ مسكونة بالخصى الباردة؟» قال الزّعيم، وقد عاد إلى الحياة بغتة، ضاحكاً ضحكة هائلة تخلّلتها نوبات سعال قصيرة حادّة. صعقت من الفرح وأنا أراه يعتدل وينهض نافضاً عن ثيابه غبار الليثيوم. ولمّا تأمّلتُ ذاهلا في عينيه السّاخرتين، لمحتُ غلاً رهيبا وغضبا بلا حدود.

* * *

فانون غادر الرّازي بعد أن فشلت الثّورة وفقد مُعاونيه الأربعة. غادره مرّة أخرى، تماماً مثلما حدث منذ أكثر من نصف قرن، تحت أنظار سليم عمّار الذي لمعت عيناه ببريق انتصار أزرق وحشي. وشيئاً فشيئاً، وعلى امتداد أسبوعين، عادت الأمور إلى سابق عهدها داخل المُستشفى. إدارة الرّازي سلّطت على الأخصّائيّين النّفسانيّين الذين شاركوا في الاعتصام عقوبة تقضي بخصم أجرة ثلاثة أسابيع من العمل. مُعتبرين مشاركتنا في ثورة الضّحك غيابا غير شرعيّ يستوجب العقوبة. كانوا يتعمّدون إذلالنا وإهانتنا كما اعتادوا أن يفعلوا دائماً.

لم أحتمل الهزيمة وقرّرت الرّحيل أنا الآخر واللّحاق بفانون. امتلكني شعور مرّ بالقهر والغضب. شعرتُ أنّنا كنّا وحدنا، عزّلا، في مواجهة كيان هائل يفوقنا قوّة وعتادا. شيء مُرعب ومُظلم ومتغلغل في كلّ مكان. شيء مُدجّج بالمال وقادر على جذب أيٍّ كان واستمالته. شيء مُقرف اسمه السُّلطة، وإن كان له ألف وجه.

لمّا أخذتُ في تحرير رسالة استقالتي، كان ليزر، صديقي السّحلية، يزحف على السّقف مُتلصّصاً من فوق على ما أكتب. ثم إنّه هوى بجانبي فوق المكتب ودبّ على الورقة ليمنع قلمي من المضيّ في ما

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ أخطّه. أبعدته بقلمي عن الورقة بلطف وعدتُ للكتابة إلاّ أنّه عاد يمنعني غارزاً مخالبه الدّقيقة في الورقة رافضاً التنحّي عنها.

كان يعتقد أنّي أمزح لمّا حدّثته عن الاستقالة في المرّة السّابقة. أذكر أنّه لم يكن على علم بكل ما حصل منذ عودة فانون واندلاع ثورة الضّحك، فهو لم يكن يُغادر جدران القسم أبدا. واتّهمني بالهذيان واختلاق تلك القصّة لمغادرة الرّازي. لأنّي، حسب رأيه، لا أحتمل شعور الخصاء النّاتج عن مُضايقات رئيسة القسم المُستمرّة. ليزر المسكين كان يُصدّق تحاليله ويثق فيها ثقة تامة. رغم أنّه، على غرار جميع المحلّلين النّفسانيّين، لم يكن يُغادر مكتبه المغلق الرّطب ولا يعنيه شيء ممّا كان يحدث في الخارج بعيداً عن أريكته المُتعفّنة. لا تهمّه السّياسة، لا تعنيه الصّراعات والثّورات ولا يهمّه كلّ ما لا يخضع لمنطق بابا-ماما الأوديبي الذي كان يتفنّن في إسقاطه على كلّ شيء.

عاد ليزر يحدّثني عن النّقصان، والنّضج، والقبول بالخصاء، وقانون الأب، وغيرها من مفاهيم التّحليل النّفسيّ الجبانة التي كانت تُثبت لي أكثر فأكثر تغلغل مرض حبّ السلطة في كلّ شيء. كان يُحاول إثنائي عن تقديم استقالتي. فما كان منّي إلاّ أن هويتُ على ذيله بقلمي لأفصله عن بقيّة جسمه فيأخذ في التّقافز متلويّا أمامي على سطح المكتب.

«مجنون، مُنحرف»، صاح في ألم ورعب ثم قفز على الأرض وجرى نحو الحائط وتسلّقه بسرعة ليلوذ بالسّقف ويواصل في شتمي من بعيد.

«اذهب الآن إلى أبيك «لاكان» حتّى يستنبت لك ذنبا جديداً». ثم عدتُ لتحرير رسالتي، وأنا أراهن على أنّه نسي ألمه ومضى يُفكّر في

مكتبة الفكر الجديد

سبب استعمالي لكلمة ذَنَبٍ بدل ذَيْلٍ، وعن علاقة الذَنَبِ بالشّعور بالذّنب والخطيئة.

* * *

كنتُ قد كتبتُ استقالتي ووضعتها في دُرج المكتب. على أن أقدّمها إلى رئيسة القسم يوم الغد. لكنّي ما إن وصلتُ إلى الرّازي هذا الصّباح حتّى وجدتُ هرجا ومرجا وفوضى كبيرة. كانت سيّارات الشّرطة والحماية المدنيّة والإسعاف في كل مكان. طوّقوا قسم العيادات الخارجية حيث أعمل، ضاربين حوله شريطاً بلاستيكيّاً عازلاً. رأيت كذلك سيّارات وشاحنات بثّ تلفزيّ عليها شارات بعض القنوات العالميّة وعشرات الصّحفيّين والمُراسلين مُتجمّعين عند باب القسم ينتظرون أمراً مّا.

جاوزت الشّريط البلاستيكيّ ودخلت إلى الدّاخل. كان القسم مُقفراً على غير العادة، وكانت هناك جلبة عالية تأتي من جهة مكتب رئيسة القسم. حاولت التقدّم لكنّ رجال الشّرطة بالدّاخل منعوني، ووقفوا يسدّون الممرّ الذي يقود إلى مكتبها. رفعتُ رأسي لمّا سمعت صوتاً يناديني همساً من فوق. كان ليزر، الذي نبت نصف ذنبه. «اتْبعني»، قال وزحف بعيداً على السّقف. تبعته إلى مكتبي وانتظرت أن يدخل ثم أوصدت الباب وألف سؤال يجول بخاطري.

«لقد رأيت كلّ شيء. يا إلهي ! لا أكاد أصدّق الأمر. كم أشعر الآن بالذّنب لأنّي لم أصدّقك لمّا حكيْتَ لي عن صديقك الزّنجيّ، *ومشروع الكيراتين*، وثورة الضّحك، وكلّ تلك الأشياء التي كنتُ أحسبها ضُروبا مُختلَقة من الهذيان.»

مكتبة الفكر الجديد

شعرتُ بتحفّز كبير وقلبي يأخذ في الخفقان بقوّة وليزر يسرد على مسامعي تفاصيل ما شهِده في مكتب رئيسة القسم منذ قليل.

«لقد وقعتُ عليه صدفة في الممرّ الذي يقود إلى مكتبها. خلتُ أول الأمر أن تلك كانت هلوسة ناتجة عن فقدي لذنبي. فلم أكن أتصوّر البتّة أن ألمح زنجيّا يتجوّل ببندقيّة Shotgun ضخمة داخل أروقة المُستشفى. كان يمشي في ثقة مُرخيا قبّعته البيضاء على عينيه. ثم توقّف لحظة أمام باب المكتب ليتفقد حزام الخراطيش تحت معطفه الأبيض الطويل، ويطرق الباب. لم يُحرّك الرّجل ساكنا وهو يسمع صوتها يأتي من الدّاخل مُشيراً على الطّارق بأن يدخل، قبل أن يُعاود طرق الباب مرّة أخرى. ثمّ تحفز ووقع خطواتها الثقيلة يدنو من الباب في عصبيّة.

«Surprise motherfucker»، قال وأهوى بعنف على وجهها بمؤخّرة البندقية بعد أن فتحت الباب، ليُدحرجها على الأرض ثلاثة أمتار إلى الوراء. ثم شغّل سلاحه وأطلق طلقة مدويّة فجّرت رأسها فانبعث من رقبتها بخار أبيض كثيف وأخذت الخُصى في الفوران والتّطاير من فتحة العنق متقافزة في رعب، مُتناثرة في جميع الأنحاء.»

كدتُ أقفز من الدّهشة والإثارة إلاّ أنّي ملكتُ نفسي وليزر يُواصل الحكي مُتحمّسا:

«أحكم الزّنجي إغلاق الباب خلفه وقد تبِعْتُه إلى الدّاخل. سحب من جيب معطفه نظارات سوداء وضعها على عينيه وأخذ يصطاد الخصى الشيطانية ببندقيته الضخمة. انفجرت الكائنات الرّخوة مُخلّفة على الجدران لطخات فسفوريّة لزجة بنفسجيّة وبرتقاليّة وخضراء... بعضها حاول الاختباء خلف أثاث المكتب مُطلقاً صرخات حادّة تُشبه ما تصدره

مكتبة الفكر الجديد

القطط أثناء السّفاد. لكن الزّنجي الغامض كان يقلب الأثاث ويُخرج تلك الكائنات من جُحورها ليُبيدها في تصميم وعزم كبيرين، مُلقّما بندقيّته المخيفة من حين إلى آخر.» توقّف ليزر عن الحكي لحظة ليلتقط أنفاسه، ثم استطرد ولسانه الدّقيق يطلّ من فمه:

«انهار هيكل البدينة وتهدّل ثدياها العارمان وقد انفرت استها الضّخم على الأرض والبخار الأبيض يواصل الانبعاث من داخلها، إلى أن ذبلت وانكمشت مثل منطاد مثقوب. أمّا الخصى المفزوعة فلم تكن تعثر على مكان تختبئ فيه والطّلقات المتتالية تقتنصها وتبيدها بلا رحمة. حتّى أنّ إحداها كادت تُصيبني ممّا جعلني أهرب بذَنَبي عبر شقّ الباب»، ختم ليزر، دون أن يتوقّف لحظة واحدة عن الزّحف على السّقف جيئة وذهابا.

تركته بغتة وركضت خارج مكتبي نحو مسرح العمليّة. لكني لم أخطُ خطوتين في الممرّ حتى اعترضني فانون مغادراً مكتب رئيسة القسم. كان يسُند البندقيّة إلى كتفه ويخطو خطواته الواثقة وقد تلطّخ معطفه الأبيض بتلك المادة الفسفوريّة الملوّنة، ورجال الشّرطة يُفسحون أمامه الطّريق في رهبة.

* * *

قُبالة أحد جانبي شاحنة ضخمة خُطّت عليه عبارة The Exterminator، وقف فانون يُدلي بكلمة إلى حشد من الصّحفيّين والمراسلين الذين تدافعوا أمامه مُزاحمين المرضى، مطلقين في وجهه سيلا من الأسئلة والفلاشات. كان العملاق الزّنجيّ قد نزع نظّاراته السّوداء، وإن كان لا يزال ممسكاً ببندقيّته التي أرخاها قليلا.

مكتبة الفكر الجديد

«لا يكفي أن تقتلوا دكتاتوراً أو تطيحوا به»، قال الزّعيم بابتسامته السّاخرة، ثم أضاف مُجيلا بصره في الحاضرين: «يجب كذلك أن تُفجّروا خصيتيه. إذا كنتم تعتقدون أنّ هِتلر وبينوشي وتشاوشيسكو والقذّافي وغيرهم قد ماتوا، فأنتم واهمون. مادمتم لم تتأكّدوا تماماً من أنّ خُصاهم قد سُحقت وأُبيدت، فلا يمكن أن تجزموا بأنّ الطّغاة انتهوا تماما.

باسم رابطة الكُتّاب الملاعين، أعلن أننا تخلّصنا قبل قليل من عشّ كامل للخصى الشّيطانيّة، بل ومحضنة كان يُمكن أن تُفرّخ المزيد من تلك الكائنات الطفيليّة. المعلومات التي وردتنا كانت تُفيد بوجود بؤرة في الرّازي تؤوي خُصى دكاترة ماتوا ولم يفنوا. كُنّا نعلم بأنّ تلك القاذورات ستدافع عن نفسها حتى آخر رمق، وستسخّر إمكاناتها الهائلة لأجل ذلك. لذا كان مطلوبا استفزازُها حتّى تكشف عن نفسها فنتمكّن من تحديد مكانها والقضاء عليها تماما. وأحسب أنّنا قد نجحنا هذه المرّة»، قال فانون ناظراً نحوي مُمتنّاً. وتابع بحزم مُلتفتاً نحو الحضور: «سيظلّ هناك قمع، سيظلّ هناك جشع، وسيظلّ هناك استغلال وقتل، مادامت تلك الطّفيليّات لم تمت نهائيا. لأنّه يكفي أن تُمارس تلك القاذورات جاذبيّتها المغوية على شخص وُصوليّ، نذل، بلا خُصى، وتعلق بين فخذيه، حتى تُسيطر على روحه وتعود لبث سمومها من خلاله.

ستالين وماكدونالدز أو هتلر وفيليب موريس، كلاهما وجهان لخصية واحدة. أو آرييل شارون وبوكاسا، وغيرهم وغيرهم. إنّهم دائماً يعودون بطريقة أو بأخرى. لذا، تذكّروا جيّدا: فجّروا الخصيتين، تنشفْ العروق.»

مكتبة الفكر الجديد

عادت الفلاشات إلى العمل وفانون يختم كلمته ويتنحى من أمام الحشد المُتدافع ويمضي نحو مقدّمة الشّاحنة، لمّا لاحقته بالسؤال:

«هل تعتقد أنّ كلّ شيء قد انتهى فعلا هذه المرّة؟»

منحني الزّنجيّ ابتسامته السّاخرة المعهودة وهمّ بالصّعود، فعدتُ أسأله:

«ولم أنا؟ لماذا اخترتني؟»

«نحن لم نخترك. أنت كُنتَ معنا منذُ البداية»، قال وفتح باب المُرافق وصعد إلى الشاحنة وأنزل شباكها الأسود المعتّم إلى النّصف.

«ماذا تقصد؟» كنتُ سأسأله لكني أحجمتُ لمّا رأيت الشخصين اللذين كانا معه في الدّاخل. وجهاهما بَدَيا لي مألوفين. ورغم القبّعة الرّماديّة على رأسه فقد ميّزت «ويليام بوروز» خلف مقعد القيادة «وجورج باتّاي» جالساً في الوسط. كانت مُفاجأة. لكنّي ما إن بدأت أهضم الأمر حتى كان فانون يرفع شبّاك النافذة المعتّم والشّاحنةُ تسير لتغادر الرّازي مُخلّفة عجاجة من الغبار.

وثورة الضّحك؟ ومشروع *الكيراتين*؟ وغيرها من الأسئلة الأخرى ظّلت عالقة في ذهني بلا جواب، وأنا أتابع الشّاحنة العملاقة تختفي خلف أسوار الرّازي العالية آخذة معها الملاعين الثّلاثة.

لبثتُ واقفا في مكاني إلى أن غادر الجميع وعادت الأمور إلى سيرها العاديّ. كان يبدو أنّ كلّ شيء قد انتهى فعلا، بنفس البساطة التي انطلقت بها الأمور. كما كلّ الأشياء المجنونة التي تحدث عادة في الرّازي. تبدأ هكذا وتنتهي هكذا. وكما أفعل دائماً، عرّجتُ على الكافيتيريا لآخذ قهوة وأرجع إلى مكتبي. كنتُ أشعر بضرب من الحزن المتفائل. ورغم أنّي كنتُ متأكداً من أنّ فانون لن يرجع هذه المرّة إلى

مكتبة الفكر الجديد

الرّازي أبدا، فقد غلب شعور الفرح أخيراً على قلبي، وأنا أعيد على ليزر كلمة فانون التي ألقاها على الصّحفيّين قبل قليل. كنتُ مُتحمّساً أثناء الحكي، غير أنّي اجتنبت لسبب مجهول ذكر خبر من رأيتُ إلى جانبه داخل الشّاحنة. أحسستُ أنّي لابدّ أن أحتفظ بذلك الأمر لنفسي.

انشغلتُ باحتساء قهوتي مُقرّبا الكوب من فمي. آخذُ جرعات قصيرة من حين إلى آخر إلى أن نفدت القهوة. كان ليزر منفعلا بما قاله فانون حول الخصى محاولا تحليل الأمر وإيجاد رمزيّة لكلمته التي كانت لبساطتها ودقّتها لا تحتاج إلى تأويل. وحتّى لمّا كفّ ليزر عن الهذر لم أتفطن إلى ذلك. ثم إنّ إحساساً مباغتاً بالقلق عاد يُساورني وأنا ألمح عبر شبّاك النّافذة عَمَلة التّنظيف يحملون ما تبقّى من بؤرة الخصى المنكمشة أو رئيسة القسم السّابقة لإلقائها في مزبلة المستشفى.

كُرسيّ رئيس القسم لن يبقى شاغرا. من المؤكّد أنّ حربا مّا تدور الآن في الخفاء لأجل ذلك الإرث المُظلِم. مَن يضمن بأنّ مُستعمرة أخرى من تلك الطّفيليّات لن تأتي مع الرّئيس الجديد؟ ربّما كان الأمر يتطلّب حلاّ أكثر راديكاليّة. كنتُ جامداً غارقاً في تلك الأفكار لمّا رأيتُ واحدة من تلك الطفيليّات تنطّ قرب الخزانة وقد برزت منها شُعور راحت تتحرك كقرون استشعار الحلازين. لم أحرّك ساكنا لمّا رأيتها. حتى ليزر تيبّس على السّقف. كنتُ أشعر بغلّ رهيب وأنا أُتابع اقترابها الأعمى من مقعدي، متوقّفة كلّ مرّة لتُحرّك قرون استشعارها في الهواء بشكل حذر يزيد الغيظ.

صَبرت. انتظرتُ إلى أن صارت عند موطئ قدمي ثم قفزت وسحقتها بلا رحمة.

فْفْزْزْتْ.

مكتبة الفكر الجديد

آخر يوم على الأرض

لا بّد لنا من السّفر حول العالم ورؤية إذا ما كانت الجنّة مفتوحة، ربّما، مِن الخَلف.

كلايست، «حول مسرح العرائس».

أفقتُ مفعما بسكينة لا عهد لي بها. لبثت أتمطّى في سريري لبعض الوقت رغم أنّني كنتُ متأخّراً كثيراً عن موعد العمل. كنتُ مطمئنّا ومُغتبطا. وفسّرت تلك الطّمأنينة بأنّ ما كنت عالقاً فيه قبل أن أصحو كان مجرّد كابوس مزعج. كان مناما لا يختلف كثيراً عن بعض أيامي العاديّة. رأيتني في طريقي إلى الرّازي، منكبّ الرّأس، من أثر قلّة النّوم وصداع الخُمار، على مقود سيّارتي العالقة في زحمة الصّباح. كان الطّقس مُمطراً وكئيباً والسّماء رماديّة والطّريق مُوحلة قذرة. وفي المنام، كنت متأخّراً عن عملي بأكثر من نصف ساعة، وفي الأجندا ستّة مواعيد صباحيّة. لكن لحسن حظّي أنّ تلك كانت رؤيا مزعجة انزاحت عن كاهلي بمجرّد أن صحوت.

كانت زوجتي قد أفاقت قبلي وغادرت السّرير. من عادتها أن توقظني لأوصلها إلى عملها. ناديتها فلم ترد. يبدو أنّها خرجت باكراً ولم

مكتبة الفكر الجديد

تنتظرني هذه المرّة. لبست ثيابي على مهل رغم أنّي كنت مُتأخراً جدّاً. الغريب أنّي لم أصحُ مذعوراً كالعادة ولم أحسّ بأيّ ضغط.

كنّا في شهر جانفي، بيد أنّ الطّقس عبر النّافذة يُنبئ بيوم ربيعيّ دافئ وجميل. غادرت البيت بنفس ذلك الارتياح والمزاج الرّائق، ولوهلة حسبته يوم عطلة. كلّ السّيّارات أمام العمارة رابضة في أماكنها وكأنّه يوم الأحد وليس يوم الاثنين. أدرت المحرّك وانطلقت. قطعت أكثر من خمسة شوارع دون أيّ أثر لسيّارة. قدتُ لوحدي في طريق مفتوحة. سِرت بسرعة مُنخفضة. بين الحين والآخر كانت تعترضني جماعات من النّاس يترجّلون على الرصيف، يتحادثون في ما بينهم وعلى وجوههم راحة وسكينة. بدأت أشكّ أكثر فأكثر في أنّه يوم عُطلة.

عند إحدى المُفترقات رأيتُ شرطيّا يخلع قبّعته ويضعها تحت إبطه ويغادر المفترق لينضمّ إلى مجموعة أخرى من الأفراد غادروا مقهى وأخذوا كذلك يترجّلون على الرّصيف. كان بينهم أشخاص بألبسة العمل وآخرون بأزياء عاديّة. الجميع راحوا يمشون في اتّجاه واحد وعلى وجوههم نفس الارتياح. ثم إنّي توقّفت كثيراً عند مشهد أمّهات يُغادرن روضة أطفال رفقة أبنائهنّ، ليفارقنهم ويمشي كلّ واحد في حال سبيله. وكلّما أوغلت في الشّوارع أكثر كان يحدث أمامي أمر غير عاديّ. رأيت في ما رأيت شابّاً معوقاً ينهض من كرسيّه المتحرّك ويأخذ في المشي وينضمّ إلى حشد من الأطفال غادروا مدرسة، ليسيروا جميعاً على الرّصيف، قبل أن يتوقّف الجَمْعُ أمام مُتشرّد يفترش الأرض ويمدّ يده يطلب صدقة. لم يتبادلوا معه سوى كلمات قصيرة حتى نهض هو أيضاً ونفض ثيابه وانضمّ إليهم، ليواصلوا السّير أجمعين. كان النّاس يتدفّقون من العمارات، ويغادرون المحلاّت والإدارات، وينزلون من السّيّارات

مكتبة الفكر الجديد

والحافلات، ويسيرون على الأرصفة، وتغصّ بهم الطّرقات في مسيرات هادئة تمضي كلّها نحو وجهة مجهولة. ماذا يحدث للعالم؟ أي قوّة يمكن أن تجعل الأمهات يتخلّين عن أبنائهنّ، وتُرجع للمشلولين القدرة على الوقوف والمشي؟

بغتة اعترضتني شابّة تبكي وحيدة على الرّصيف، على وجهها علاماتُ جزع والتياع. ولمحت شابّا يغيب عند آخر الشّارع راكضاً وبيده حقيبة يد. كان المشهد الوحيد المألوف الذي رأيته حتى الآن من جملة المشاهد المجنونة التي تتالى عليّ منذ الصّباح. إلاّ أنّه لم تمض لحظات قبل أن أرى نفس الشّابّ يعود نحو الفتاة في هدوء صحبة كوكبة من العجائز غادروا للتوّ مأوى للعجّز موجوداً عند منعطف الشّارع. الشّابّ ناول الفتاة الحقيبة وتبادل معها كلمات قليلة مسحت على إثرها دموعها وابتسمت في ارتياح وترجّلت صحبتهم، بعد أن تركت الحقيبة خلفها مرميّة على الرّصيف. كنت منذهلا لما يحدث أمامي. ومرّة أخرى وجدتني أتساءل مرتبكا: ماذا يحدث للعالم؟ ماذا أصاب النّاس؟ هل توقّف الكوكب عن الدوران؟ وتبادر إلى ذهني أن أفتح الرّاديو لأعرف ما الخبر.

تسعة عشر ثانية كانت كافية لأفهم أنّ المنشطّ كان يتحدّث عن نهاية العالم!

قال إنّ الرّب فاجأ الجميع إذ أطلّ بوجه سافر عند الفجر، بعد أن رفع السّماء الدّنيا كغطاء القِدر، ليظهر بتزامن فوق كلّ السّماوات. الذين شاهدوه مُباشرة أجمعوا على أنّه كان في هيأة مايكل جاكسون أثناء تصويره لألبوم *Thriller*، وإن كان يضع «بيرسينغ» في شكل حلقة خضراء على الجانب الأيسر من شفته السّفلى. «لقد تحدّث العربيّة

مكتبة الفكر الجديد

وسمعه ورآه كلّ من رفع رأسه نحو السّماء»، تابع المنشط. «المشهد كان مُفاجئاً وإن كان مُتواضعاً من حيث الإخراج. ورغم أنّه لم يدم أكثر من دقيقتين، فإنّ أحد المصورين الهواة تمكّن من التقاطه كاملا لتتناقله أغلب القنوات العالميّة بعد أن نُزّل أوّلا على اليوتوب».

«ما هذا الهراء؟» هتفت، وغيّرت المحطّة وقد أخذت أشعر بالدّوار.

«...يبدو أنّ الرّب تحدّث العربية بلكنة أميركيّة فهمها كلّ أهل الأرض»، سمعت منشط المحطّة الأخرى يقول، قبل أن يُعيد بث كلمة الرّب المُسجّلة كاملة.

«أُوكي، انتهى كلّ شيء الآن. سقط التّكليف. لا تثريب عليكم. في وسع كلّ واحد أن يتوقّف عن لعب دوره. انتهت المسرحيّة التي أسميناها الحياة الدّنيا. وحسبتكم ستملّون قبلي وتنهونها بأنفسكم. لكن لو أوتيتم أبداً آخراً لما انتهيتم ولبقيتم فيها تواصلون. والآن، أنهينا كلّ شيء، فانتهوا. أُوكي؟ وستدخلون الجنّة كلّكم دون استثناء.» كلمة الرّب المُقتضبة كانت موصولة بومضة إشهارية انطلقت على إثرها مُباشرة. لكن لم تمض ثوان حتى توقّفت الومضة والمذيع يعود للحديث، مطلقاً مزحة ثقيلة حول لا جدوى الومضات الإشهارية يوم القيامة. ثم تابع:

«الكثير من البشر لم يصدقوا الأمر أوّلئذٍ، والبعض وجدوا صعوبة في التخلّي عن أدوارهم. لكن بمجرّد أن انفحت أبواب الجنة الثّمانية حتى بدأ النّاس يقتنعون ويتركون أعمالهم آخذين في التّوافد على الأبواب. أوّل باب للجنّة فُتح في ماخور بأمستردام. الباب الثّاني فُتح في إحدى حدائق مستشفى الرّازي بتونس. الباب الثّالث فُتح في مصنع للبيرّة بألمانيا. الباب الرّابع فُتح في مصنع للشّوكولا بسويسرا. الباب الخامس

مكتبة الفكر الجديد

فُتح في إحدى منتجعات التّدليك في تايلند. الباب السّادس فُتح في إحدى قاعات ألعاب الفيديو في اليابان. الباب السّابع فُتح في أحد شواطئ ركوب الموج في كاليفورنيا. والباب الثّامن والأخير فُتح في قبو للخمور بأستراليا. قال المُنشّط كذلك إنّ الفرنسيّين اغتاظوا لمّا لم يَفتح الرّب بابا للجنّة في فرنسا. وأضاف بأنهم تضايقوا بسبب خروجهم من الدّنيا من الباب الصّغير. لائحة المتضايقين لم تقتصر على الفرنسيّين فقط»، استطرد. «الكثير من المسلمين لم يُصدّقوا أنّ الكوميديا الانسانيّة انتهت فعلا. وخرجت العديد من المظاهرات الغاضبة تتّهم الأميركيين بفبركة حدث ظهور الله فوق كل السّماوات، معتبرين ذلك اعتداء على الذّات الالهيّة. وأُحرقت العديد من السّفارات الأميركيّة عبر العالم. لكن بمجرد أن بدأت قنوات الأخبار تنقل ما يدور عبر باب الجنّة الذي فُتح في ماخور بأمستردام، حتى ثابوا إلى رشدهم، وتخلّوا عن أدوارهم، وصدقّوا أنّ كلّ شيء انتهى، وهبّوا زُمراً يطلبون أقرب أبواب الجنّة. اليهود، في المقابل، لم يقبلوا بالتخلّي عن دورهم كشعب الله المُختار، وقرّروا البقاء على الأرض لإقامة دولة إسرائيل من النّيل إلى الفُرات.»

قدّر المنشط بأنّ الأمر سيتطلّب ثلاثة أشهر حتى تنجلي آخر قدم بشريّة عن الأرض. ثم هنّأ العالم على انتهاء أعبائه، وترك سيمفونيّة بيتهوفن التّاسعة تتدفّق على موجات الأثير، وغادر موقعه وانضمّ بدوره إلى بقية الماشين.

هبطت من السيّارة مترنّحاً وإن كان إحساس الارتياح قد أخذ يعاودني. انضممت إلى النّاس ومشيت معهم. كنتُ كلّ لحظة أنتظر الإعلان عن أنّ الأمر مجرد كميرا خفيّة محبوكة لاختبار مدى قدرتي

مكتبة الفكر الجديد

على تصديق الأمور المجنونة. لكنّ ضخامة الحشود التي كانت تعترضني وانصراف النّاس عن كلّ شأن جعلني أصدّق أنّ كلّ شيء انتهى فعلا، في هذا اليوم الدّافئ من شهر جانفي.

كان في رأسي ألف سؤال يدور. ربما كان بإمكاننا أن ننهي كلّ هذا منذ وقت طويل. كلّ ما كان يتطلّبه الأمر هو بعض التّنسيق. كيف لم يُغادر البشر مواقعهم منذ زمن طويل، ملقين ما بين أيديهم، وما وراءهم وما أمامهم، ليتوجّهوا نحو السّماء ويهتفوا بصوت واحد: «يكفي. لقد مللنا كلّ هذا.» وبقيت أُفكّر في سيناريوهات أخرى محتملة لنهاية العالم. وسرعان ما توصّلت إلى أنّه من العبث التّفكير والانشغال بأيّ أمر في هذه السّاعة الخطِرة. «كلّ شيء انتهى الآن، وبالطّريقة الأقلّ رُعبا»، قلتُ وأطلقت زفرة ارتياح، ولم أتمالك عن ضحكة وأنا أتذكر أنّني حتّى يوم القيامة صحوت متأخّراً وكاد الحدث أن يفوتني.

« Yes motherfucker»، صرخت من الإثارة وركلتُ إحدى اطارات السيّارة. «أخيراً لن أعود مضطرّاً للنّهوض باكراً وشرب قهوتي الأولى داخل السيارة تحت ضغط الوقت وزحمة الصّباح ودويّ المُنبّهات.» ثم خطر لي أن ألتقط لنفسي سِيلْفي. لا أدري كيف راودتني الفكرة. لكنّ التقاط صورة تذكاريّة يوم القيامة كان أمراً نادراً ومغرياً. رفعت لوح السمارتفون وأمطرت نفسي بوابل من الصّور وقد أخذ بعض المارّة يرمقونني في فتور. تجاهلتهم ودخلت على الفيسبوك لأحمّل سِيلْفي أخيرًا على صفحتي. كنت أعتقد أنّني الوحيد الذي خطر له مثل ذلك الأمر الطّريف. غير أنّني فوجئت بكمّ هائل من السّيلفيات التي تهاطلت على الشّبكة منذ الإعلان عن نهاية الزّمان. كانت هنالك جماعة أطلقت

مكتبة الفكر الجديد

على نفسها اسم apocalypse selfie قد أقامت صفحات على الشّبكة لتحميل السّيلفيات وتقاسمها. كانوا يُعدّون بالآلاف وقد أعلنوا في بيان لهم أنّهم باقون على الأرض لذلك الغرض.

كنتُ حدّ اللّحظة لم أشرب قهوتي بعد. فابتعدتُ عن سيارتي وسِرتُ عبر الحشود نحو مقهى قريب. شعرت بخفة وإثارة كبيرتين، على عكس العشرات الذين كانوا في مشيتهم الواجمة أشبه ما يكونون بعُمّال يُغادرون مصنعاً آخر النّهار. دخلتُ المقهى لآخذ قهوة سريعة وأستفيق من هول الصّدمة فلم أكن أتصوّر يوما بأنّني سأشهد نهاية الزمان.

كان المقهى فارغاً والتّلفاز مفتوحاً يعرض أخبار الأبواب الثّمانية والشّاشة تنقل بثّا حيّا من شاطئ Venice beach أين كان المئات يركبون الألواح الشراعيّة واليخوت ويمضون نحو دوّامة مائية هائلة كانت على بعد ميل من الشّاطئ تسحب كلّ من يقترب منها وتبتلعه لتلقي به على شواطئ الأبد. ثم انتقل البثّ إلى الجادّة الحمراء بأمستردام أين فُتّح Vortex في شكل فرج عملاق يُشعّ ويتوهج بألوان الشفق الجذابة. كلّ ذلك الجنون زاد في حاجتي للكافيين فقفزتُ وراء الكونتوار ووقفتُ أمام آلة صُنع القهوة مُتذكّراً مشهد عصر القهوة الذي كنتُ أشاهده أكثر من مرّة في اليوم وحفظته عن ظهر قلب.

هجمتُ على الأذرع المعدنيّة لأعدّ واحدة بنفسي. قهوة أولى. قهوة أخيرة. قهوة نهاية العالم. تُرى كيف سيكون مذاقها؟ انشغلتُ بإعداد القهوة. كان الأمر مُمتعا. أعددت ما يربو عن الثّلاثين قهوةً واكتشفتُ في نفسي مهارة كبيرة في إعداد القهوة. ثمّ إنّي قمتُ أُنضّد الكؤوس وأصلح الكراسي وأوزّع القهوة على الطّاولات الفارغة بعد أن ارتديت جاكيت

مكتبة الفكر الجديد

السّاقي الملقاة خلف الكونتوار. أخيراً أخذتُ فنجاناً وجلستُ وحيداً إلى إحدى الطّاولات أرتشف قهوتي الأخيرة على الأرض. يا لها من مهنة مرحة ومُمتعة. تُرى كم مهنة أخرى مماثلة كنتُ سأستمتع بها لو تخلّيتُ عن مهنة النّفسانيّ المُرهقة؟ وتذكّرتُ كلّ المهن التي حلمتُ بممارستها ولم أجرؤ يوما على الاقتراب منها لأسباب مُختلفة. كنتُ أحلم بأن أفتتح مطعما إيطاليا أسميه Psychopâtes، مُختصّا في إعداد البيتزا والمعكرونة. لطالما كنتُ أشعر بالفتنة تُجاه مُعدّي البيتزا وهم يخبطون العجينة على الرّخام بشبق. يُعملون فيها قبضاتهم ويدوّرونها في خفة وليونة لتصير أقراصاً يُريقون عليها صلصة الطّماطم ويكسونها جُبناً وغيره، ليلقوا بها في الفرن فتحمرّ وتنضج وتخرج مُتفتحة كزهرة المارغريتا. كنتُ أودّ لو كنتُ بحّاراً صائد حيتان. وحلمتُ كذلك بأن أصير مُحترف وطْءٍ؛ نجم أفلام بورنوغرافيا، ومُربّي نحل ورجل مطافي في لوس أنجلس، وعدّاء للمسافات الطّويلة ورائد فضاء، ومُصوّر أعاصير، وغيرها وغيرها من المهن التي لم تعد مُمكنة بعد أن أُحيل العالم على التّقاعد المُبكّر. كانت سيمفونيّة بيتهوفن التاسعة تُرافق الملايين وهم يمضون نحو أبواب الجنّة زمرا، وشاشة التّلفاز تبثّ لقطات مختلفة للعطالة الكونية الرّائعة. وحضرني بيت للمعرّي واللّحن السّماويّ يُطربني ويورثني إحساساً رائعاً بالثّمالة:

فسد الأمر كلّه فاتركوا الإعراب إنّ الفصاحة اليوم لحن.

* * *

خرجتُ من المقهى مُغتبطاً بالموسيقى وامتزجتُ بالحشود. كنتُ ما أزال بعيداً عن مُستشفى الرّازي. وكلّما تقدّمتُ وجدتني أُبطئ الخطو

مكتبة الفكر الجديد

لشدّة ما كان الشّارع يعجّ بالنّاس. المسيرة شبه صامتة. كنّا نمشي وننتظر. وأحياناً تسمع أحدهم يسأل ويستفسر عمّا بثته وكالات الأنباء حول ما كان يدور خلف أبواب الجنّة الثّمانية. يبدو أنّ ما شوهد وراء الأبواب، إلى حدّ الآن، كان أمراً مألوفاً لا يختلف كثيراً عمّا عرفناه على الأرض. وعلّ أفضل ما في الأمر أنّ هنالك من كلّ شيء ما يكفي حاجةَ كلّ النّاس ويزيد. حاولت مرّة أخرى أن أصرف ذهني عن التّفكير، لكنّ أسئلة عنيدة عادت تلحّ عليّ. لماذا قبلنا هذا الدّور؟ لمَ لمْ نُنه الأمر منذئذ؟ وهل يُساوي شقاء البشر وآلامهم الحانة والماخور التي كانوا بها يوعدون؟ ألم يبدع البشر من المُتع أروع ممّا وعدهم به الإله في كُتبه الآخرة والأولى؟ الشّوكولا، وألعاب الفيديو، والبورنوغرافيا لم تكن من بنات أفكاره. أم تراه سيقول لنا مثلاً إنّ خالقِي الشّوكولا والمثلّجات أنبياء وأنتم لا تعلمون. ثمّ إنّي طردت تلك الأفكار التي لم يعد لها أيّ معنى الآن، وكلّ عزائي كان غياب الحساب وبُهتان الجحيم. كان أجمل ما حصل لي منذ الصّباح. بل أروع ما حصل للبشر والإله معا.

بغتة لمحتُ وجها مألوفا يسير مع السّائرين. كان أحد إخوتي. قفزتُ أحضنه في حرارة وأنا لا أتوقّع أن أُصادف أحداً من أهلي يوم القيامة. لم أفرح لرؤية أحد من إخوتي مثلما حصل معي اللّحظة. ولشدّة تأثّري لم أتفطّن إلى كون أخي لم يكن يحضنني ولم يُبادلني الفرح بمثله.

«هلاّ أنهيت هذا السّخف؟» قال بعد أن بدأتُ أحسّ بأنني كنتُ أحضن لوح خشب. تركته ثم تراجعتُ خطوة إلى الوراء مُتطلعاً في حسرة إلى وجهه الفاتر. فتابع: «ها قد فهمت الآن. صرت تتحسّن بسرعة.»

مكتبة الفكر الجديد

«يبدو أن هناك سوء تفاهم. هل أنت فعلا ...؟»

«لا. أرجوك. لا تنطقها»، قاطعني. «أنا لم أعد كذلك. لم يعد هناك ما يربطنا الآن. إنّها القيامة إن كنت لا تدري.»

«كيف تستطيع أن تقول ذلك؟ كيف تستطيع أن...؟»

قاطعني مُحتدما هذه المرة:

«هل تعتقد أنّ ذلك كان سهلا عليّ؟ هل تعتقد أنّه من اليسير أن يكون المرْءُ أخا لخراء مثلك؟ عشرون سنة احتملتُ فيها غرورك وحماقاتك. كلّ شيء كان يؤول إليك. الكمبيوتر، الغرفة الواسعة، الثّياب، المال والامتيازات وكلّ شيء كلّ شيء. لم تكن تترك لنا غير الفتات. فهل سآسف على انتهاء علاقتي بوغد مثلك؟»

«ولكن...؟»

«ليس هناك لكن. سوف تفسح الطريق أمامي الآن وتدعني أمضي وشأني وإلاّ سأتعامل معك بأسلوب لم تعهده منّي.»

انهمرت دموعي على خدّي وهو يُجاوزني ليمشي مع الماشين في تصميم، وسَيلٌ من الذّكريات الجميلة يتداعى ويتبدّد أمامي كفقاقيع الصّابون. انتظرتُ لحظة آملا أن يلتفت نحوي ويرجع ليعتذر. انتظرت لحظة أخرى، ثم أطلقتُ نحوه نعوتاً مقذعة كنتُ أعيّره بها لمّا كنتُ أريد إيذاءه وإهانته. فما كان منه إلاّ أن رفع يده وأشار نحوي بوسطاه في حركة نابية دون أن يلتفت إليّ، قبل أن يغيب وسط الحشود.

* * *

جرّبت الاتصال ببقيّة إخوتي لكنّهم لم يردّوا على مكالماتي. هل

مكتبة الفكر الجديد

يُعقل أن أكون بكلّ هذا السّوء؟ حتّى والدي لم يردّ، قبل أن يصلني صوتُ المشغل الآلي ليعلمني بأنّ خطّه خارج عن الخدمة. ولم أجرّب الاتّصال بوالدتي لأنّها مُتوفّاة ولا أعتقد أنّهم كانوا يستعملون الهواتف الخلويّة للتواصل داخل الجنّة. لعنت العائلة بعد أن تفلتُ على الأرض مرّتين ثم رجعتُ إلى سيّارتي. كنتُ حانقا. أدرتُ المُحرّك وانطلقت. لم أقطع بضعة شوارع حتّى أوقفتها بحدّة وغادرتها بعد أن لمحتُ سيّارة BMW مُتوقّفة على الطريق. كانت موديل M6 فضّية اللّون، مُعدّلة، بفتحتين ضخمتين لإطلاق العوادم. قفزتُ داخل الوحش المعدني وحدسي يقول لي إنّ المفاتيح بالدّاخل. كان الأمر كذلك. شغّلتها وضغطت دوّاسة الوقود ليزأر مُحرّك الV10 بضراوة. لن يحتاج المرءُ عائلة ما دام يملك قنبلة كهذه. «تحيا الميخانيقا»، قلتُ والتقطت لي سِيلفي ثم رفعت الفرامل اليدويّة وقدمي تعصر دوّاسة الوقود لتدور السيّارة حول نفسها كنحلة سَكرى، مطلقة دخاناً وصريراً حادّاً ورائحة الاطارات المحترقة تجتاح أنفي. «أوّاه، كم أعشق الأشياء التي تُطيعني وتحترق لأجلي.» واصلت في ذلك اللّف العنيف قبل أن أحرّر الفرامل وأطلق العنان للقذيفة الفضّيّة التي اخترقت الشّارع مُخلّفة آثارها السّوداء على الاسفلت. «اللّعنة على من انتظر يوم القيامة ليمتطي وحشاً مُماثلاً. ياهووووووووو.» قدتُ بسرعة هائلة مُراوغاً النّاس والعراقيل. تجنّبتُ الشّوارع الواسعة المزدحمة بالمُشاة وسرتُ في شوارع جانبيّة مُقفرة. أضواء المرور كانت كلّها ترفرف بالأرجواني. كنتُ أنعطف بخطورة وأصعد على الرّصيف أحياناً، وأرجع إلى الخلف أحياناً أخرى لمّا ألج شارعاً مسدوداً. جرّبتُ القيادة إلى الخلف مُسترشداً بالمرآة الدّاخلية فقط. كان أمراً صعباً. صدمتُ السّيارة بأكثر من شيء. انبعج جنبها

مكتبة الفكر الجديد

الأيمن وطارت مرآتها اليُسرى وتهشّم أحد مصابيحها الخلفيّة. لكنّ ذلك لم يُنقص شيئاً من اندفاعها وقوّتها. تُرى هل سنحتاجُ إلى سيّارات للتّنقل داخل الجنّة؟ هل سيمسّ الأشياء هناك الفساد والبلى؟ كنتُ أطرح أسئلة سأتلقّى الإجابة عنها عمّا قريب. قدتُ جذِلا وبلا حذر إطلاقا. أحسستُ بمُتعة هائلة جعلتني أشكّ في أن تكون الجنّة أفضل من هذا العالم بعد أن تخلّص من أعبائه وسقطت عنه كل القوانين.

لابدّ من الاحتفال بيوم القيامة. بآخر يوم على الأرض. لابدّ أن أشرب نخب نهاية العالم. انعطفت عند شارع كبير كان يوجد في آخره مركز تجاريّ ضخم. لم أقطع بضعة أمتار حتّى علقت السّيارة وسط موجة المُشاة الفاترين. «أفسحوا الطريق يا أبناء النّكد»، صحت وأطلقتُ المنبّه بقوّة. راح البعض يُطبطبون على هيكل السّيّارة بعنف والعشرات يحدّقون في وجهي ببلادة. بات من المُستحيل أن أتقدّم ولو متراً واحداً. فقفزت خارج الـBM غير آسف عليها. لماذا يُخيّل إليّ أنّني الشّخص الوحيد الذي يُريد أن يمرح؟ بأيّ روح سيدخل هؤلاء الجنّة؟ والله إنّهم لا يستحقّونها.

سرتُ ضدّ التّيّار وبلغتُ المركز التّجاريّ بعد مشقّة. كان الفضاء التّجاريّ الضّخم مُقفراً رغم أنّ المحلات كانت مفتوحة واللاّفتات مضاءة، حتّى السّلالم الآليّة التي تأخذ إلى الطّوابق العُليا كانت تعمل. كان كلّ شيء في مُتناول يدي، هكذا، دُفعة واحدة. وللحظة شعرتُ بالارتباك والدّوار أمام ذلك الكمّ من السّلع المتروكة. قادتني ساقاي وحدَهما نحو متجر شوكولا رفيعة باهظة الثّمن، كنتُ دائماً ما أمرّ أمامه مُشيحاً بوجهي في حسرة، لأنّ ثمن المئة غرام فقط من تلك اللّذائذ كان يزيد عن الثّلاثين دينارا. رحتُ أجرّب كلّ مرّة نوعا. استسغتُ كلّ قطعة

مكتبة الفكر الجديد

مُغمضاً عينيّ والمذاق الذّكيّ يأخذني كلّ مرّة لفراديس ما كنتُ لأحلم بها. كان ما حولي من الشّوكولا كفيلا بجعلي أستعيض عن العائلة، بل وعن العالم. لبثتُ في تلك القمالة ذائبا، مسكونا بروح الشّوكولا، إلى أن صار الكاكاو يجري في دمي بدل الكريات الحمراء. ثمّ إنّي ملأت كيساً من تلك السّبائك المُذهلة وخرجتُ بعد أن طغى لديّ داعي الخمر والكحول. دخلتُ السوبرماركت. كان مشحونا بالبضائع وخاليا من البشر. أخذت عربة تسوّق دفعتها أمامي مُدندنا لحن الفرح السّماويّ. مررتُ قرب ركن الاستقبال حيث تجلس امرأة في العادة لتتكلّم عبر المضخّمات مُلقية رسائل مُختلفة. لم أخطُ خطوتين حتى راودتني فكرة خبيثة. تركتُ عربتي وتوجهتُ نحو مكتب الاستقبال، ومددتُ يدي لآخذ المصدح. طبطبتُ عليه ثم همستُ عبره: «زُب، زُب. قحبة، قحبة.» فتردّد الصّوت في جميع الأنحاء. هاهاهاهاهاهاها. عُدت أقول:

«نعلِمُ حرفاءنا اللّئام أنّه قد حان وقت الاستمناء. الرّجاء من الجميع خلع ثيابهم والتوجّه نحو خزائن الاستخلاص. نعلِمُ حرفاءنا اللّئام أنّه قد حان وقت الاستمناء. هاهاهاهاهاها.

Une pute est demandée à l'accueil. Une pute est demandée à l'accueil.

الرّجاء لمن ضيّع قحبة صغيرة الالتحاق بمكتب الاستقبال.»

واصلتُ بعث الرّسائل الفاحشة إلاّ أنّي ألقيتُ المِصدح بغتة بعد أن لمحتُ طيف شخص ينعطف عند أحد الأروقة. انبعث أزيز قويّ سبقه صوت ارتطام مُدوٍّ وأنا أركض نحو الرّواق الذي غاب فيه الشّبح.

مكتبة الفكر الجديد

كبحتُ اندفاعي بصعوبة وقد كدتُ أن أرتطم بسيّدة عجوز كانت تقف هناك أمام الرّفّ الضّخم تُقلّب عُلبة مُصبّرات.

«ماذا تصنعين هنا بحق السّماء؟» كانت تقف قبالة جبل من عُلب طعام القطط والكلاب.

«أختار طعاما لقططي»، قالت بلامبالاة. تأمّلتُ عينيها الباردتين خلف نظّاراتها ذات الزّجاج المربّع والسّميك. عدتُ أقول وهي تحطّ العلبة داخل العربة بعد أن تثبّتت من تاريخ الصّلوحية:

«لكنّها نهاية العالم. ألم يبلغك خبر الأبواب الثّمانية؟»

«بلى»، قالت السّيّدة القصيرة القامة وهي ترصّ العلب في قاع العربة.

«إذا؟»

«إذا لا أستطيع التّخليّ عن قططي. يبدو أنّه لم يصلكَ خبر أنّه من المحظور أخذ أيّ شيء أو إدخاله إلى الجنة. لا يُمكن أن أروح لعالم لا مكان فيه للقطط والحيوانات»، أضافت السّيّدة بعد صمت، ودون انفعال.

«لكنّها الجنّة، حيث لا عَيْنَ رأت ولا أذن سمعت»، قلتُ مُندهشا.

«أحبّ قططي. أحبّ أن أبقى هنا وأعيش في سلام مع قططي. أنا مُكتفية بذلك»، أجابت بهدوء، وطلبت بلطف أن أناولها الصّفّ العلويّ من العلب التي لم تكن في مُتناول يديها.

ناولتها العُلب مُغرورق العينين وكلامها عن حبّها لقططها يؤثّر فيّ

مكتبة الفكر الجديد

وقد تذكّرتُ شأني مع أخي، فزاد شجني وأحسستُ أنّني متروك لنفسي مثل جرو يتيم. تُرى ما فائدة أن يقيم المرْءُ في جنّة لا يُحبّه فيها أحد؟

«هل تقبلين لديك كلباً متروكاً تربّينه مع قططك؟» سألتها راجياً.

«كلاّ، القطط والكلاب لا تتآلفان.»

«آه، نسيتُ ذلك. معك حقّ. القطط والكلاب لا تتآلفان»، كرّرتُ جُملتها بحنق.

«لكنّه كلب لطيف»، عدتُ أقول في تضرّع.

«لا أحبّ الكلاب. أحبّ القطط»، قالت بوضوح.

بقيت أحدّق فيها كالأبله وهي تعود لفعلها الغبيّ، متثبّتة كلّ مرّة في تواريخ الانتهاء، ناسية وجودي تماماً إلى جانبها. انتظرتُ بعض الوقت في رجاء أخير. كانت مُنصرفة تماما. بغتة هجمتُ عليها مثل كلب مسعور. أسقطتها أرضاً وعصرتُ رقبتها بقبضتي في غلّ رهيب. كنتُ أخنقها بلا رحمة محدّقاً في وجهها المُحتقن المذعور.

«هكذا ستتأكّد من وصولكِ المضمون إلى الجنة. أين ستخلدين فيها لوحدك. دون قطط. دون كُرات الشّعر القذرة.» ثم تابعتُ شامتاً، خابطاً رأسها على الأرض، وهي تلفظ أنفاسها وعيناها الجاحظتان تكادان تنقذفان من محجريهما: «لكن أعدك بأنّ الطعّام سيصل إلى قططك. تأكّدي من أنّهم سيأكلونك حين يجوعون ولا يعثرون على غير جُثّتك الباردة التي سأحرص على وصولها إليهم.»

* * *

أفرغتُ عربة المرأة وعبّأتها فيها ودفعتها أمامي نحو قبو الخمور.

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ قد تحصّلتُ على عنوانها بعد أن فتّشت حقيبتها وعثرتُ عليه مُدوّنا في بطاقة هويّتها. لم أكن أمزح لمّا وعدتها بأنّني سأطعمها للقطط. دخلتُ القبو مُتهيّجا أكاد أنتصب. كان كافيا أن أرفع جداراً عند الباب وأحبس نفسي مع أربع حسناوات حتى أحصل على جنّة مُصغّرة. مرّرت أصابعي على الزّجاجات المرصوفة مُداعبا، ليُخيّل إليّ لحظة بأنّني أعزف سيمفونيّة الكحول على بيانو عتيق. كلّ هذا السُّكر لي. كان بإمكاني أن أملأ حوضاً من الجعّة وأستحمّ داخله. الكحول مُطهّر فعّال. الكحول طهارة الرُّوح.

تنقّلتُ راقصاً بين رفّ وآخر، أتخيّر قوارير النّبيذ والويسكي لأضعها داخل العربة فوق جُثة السّيّدة العجوز. ثمّ دنوت من برّاد الجعّة وفتحت واحدة مُصقّعة شربتها دفعة واحدة أطلقتُ بعدها تجشّؤا كالزّئير. عيناي أدمعتا من فرط الانتشاء ويداي سارعتا بافتضاض أخرى. جلستُ على الأرض وأجهزتُ على جعّتين أخريين وفتحتُ زجاجة جاك دانيلز. كنتُ مُستعدّا لأن أموت في تلك اللّحظة وأُقبَر في ذلك القبو المنسيّ وأبقى على الكوكب المهجور سابحاً في الزّمن الأخير، فلا جنّة ولا بعث ولا هُم يحزنون. كان في إمكاني أن أشرب حدّ التّفسّخ، كما يفعل المُشرّدون المدمنون، إذ يشربون ويبولون دون أن يراوحوا مكانهم. إلى حين تمّحي ملامحهم ويفقدون وجوههم ويصيرون غير مرئيّين. إنّ هؤلاء يهبون ذواتهم للوجد العظيم. إنّهم يتحوّلون إلى قنوات تحتمل الذّروات والأدفاق الأشدّ ضراوة. وحتى حين تُفتّتهم الشدّة ويجرفهم السّكر في غيبه فإنهم يغادرون دون ضجيج. يتألّقون لحظة أخيرة، يُشرفون فيها على قمّة ما لا يُدركُ ثم يتفتّتون ويتبدّدون.

مكتبة الفكر الجديد

كان بإمكاني في تلك السّاعة الأخيرة أن أدفع روحي في مجرى الكحول غير آسف عليها. كانت لتكون نهاية لائقة. لكنّ العالم المُترنّح، المُشرِف على العماء، كان يزخر ساعتها بالإمكانات الخطِرة الرّائعة. كنتُ أودّ أن أختبر التّنوّع اللاّنهائيّ للهاوية قبل أن أهوي فيها. ولو كانت الرّؤوس النوويّة في مُتناولي لكنتُ صوّبتها آنذاك نحو أبواب الجنة. ولأوّل مرّة في حياتي شعرتُ بأنّ الأرض هي الكوكب الأخير الذي يُمكن للبشر الهروب إليه.

* * *

دفعتُ عربتي وغادرتُ المركز التّجاريّ بعد أن استعدتُ كيس الشّوكولا من العربة الأخرى. وقبل أن أغادر حرصتُ على قضاء جولة صغيرة في متاجر الثّياب أين استبدلتُ ملابسي بأخرى جديدة تليق بالحدث العظيم. خرجتُ في قميص ضيق مُشمّر الأكمام وسروال من القماش الإيطالي وحذاء جلدي. كنتُ مُتّشحاً تماماً بالسّواد. ولكي أكسر السّواد ارتديتُ رايبان قديمة الطّراز، أحسستُ بأنّها كانت تُناديني من خلف إحدى الواجهات. سرتُ عبر الأنهج المُقفرة مُطقطقاً بحذائي الجديد، دافعاً العربة أمامي. بيت السيّدة العجوز لم يكن بعيدا. كنتُ أنوي إيصال الجثّة لأصحابها والتفرّغ تماماً لنزهة آخر الزمان. أحياناً كنت أشقّ جماعات السّائرين الذين كانوا يمضون كلّهم نحو الغرب دون أن ينتبهوا لأطراف العجوز التي كانت تُطلّ وتتأرجح خارج العربة. كانوا كقطعان الجواميس في هجرتها نحو مواطن الكلإ. ماذا في مقدوري أن أفعل بهذا الكمّ الهائل من الأجساد الخارجة عن الخدمة؟ في وسعي أن أقود حافلة وأدهس بعضهم. أو أهرع لأقرب نقطة أمن وآخذ سلاحاً

مكتبة الفكر الجديد

وأفتح النّار عشواءَ وسط الحشود. أو حتّى أصفّف عشرة أشخاص قبلة الحائط وأعدمهم بلا رحمة. لا أحد كان سيهتمّ. كان الموت سيوفّر عليهم عناء المشي والانتظار. والذين سيتبقون كانوا حتما سيواصلون نحو الغرب، نحو باب الجنّة. أو سيتوسّلون إليّ لأجهز عليهم وألحِقهم بالآخرين. كنتُ أفكّر في الكثير من الأشياء الرّائعة التي أتاح يوم القيامة فرصة تحقيقها، لمّا برز شابّ وفتاتان صوّبوا نحوي أجهزة سمارتفون وأخذوا يصوّرنني أدفع عربتي المثقلة، قبل أن يفرّوا هاربين، أمام دهشتي، تشيّعهم ضحكات جذلة. وكما توقّعت، لم تمض بضعُ دقائق حتى دخلت على الشبكة لأجد بأنّي قد تحوّلت إلى نجم شهير على يوتوب والفايسبوك.

* * *

لحسن الحظّ أنّ العجوز لم تكن سمينة وكانت تقطن في الطّابق الأوّل من عمارة قديمة. لم يكن هناك مصعد فاضطررتُ إلى حملها على كتفي دون أن أتخلّى عن زجاجة النبيذ. أدرتُ المفتاح في الباب بعد أن عثرتُ عليه داخل حقيبتها. طالعني رواق قصير ينتهي بغرفة رطبة شبه مظلمة، تبرق داخلها عشرات العيون الصّغيرة. «مياو، لقد جاء الطّعام»، قلتُ وألقيتُ الجثّة على الأرض. هرع نحوها أكثر من عشرين هرّا راحوا يشمّونها ويمشون فوقها مُطلقين مواء ملهوفا. كرعتُ جرعة كبيرة من زجاجتي ثم تفلتُ مرّتين على الأرض في قرف وأغلقتُ الباب.

نزلتُ من العمارة وعدُت أدفع عربتي نحو الشّرق. سرتُ عكس التيّار. كنتُ أشرب وأقضم قطعة شوكولا من حين إلى آخر. فضّلتُ الشّوارع الخالية على السّحنات الفاترة. ورغم السّكر فقد بدأ إحساس

مكتبة الفكر الجديد

بالسّأم والفراغ يتسلّل إلى قلبي. كان العالم موحشاً وصامتاً، رغم أنّني كنتُ أشعر بأنّ كلّ شيء كان في مُتناول يدي. ما شككتُ لحظة في أنّ هذه الأرض المتروكة إنّما هي جنّتي، ولكنّني بتّ الآن أشكّ في قدرتي على البقاء فيها وحيدا. ربّما يحتاج الأمر بعض الرّفقة. لو أعثر على أناس مرحين أستطيع أن أتسلّى معهم، كان خلاء العالم ليكون أقل وطأة. لم أكن أتوقّع أنّ جماعة سِيلْفي القيامة سوف يتعقّبونني ويصوّرونني في كلّ مكان، بعد أن أنشؤوا لي صفحات على الشّبكة تتابع كل أخباري وتحرّكاتي وتوثّقها. كنت أواصل السّير نحو الشّرق على أمل أن أعثر على أفراد مُنشقّين مثلي، وكنتُ ألمح عند كلّ منعطف يداً تمتد لتصوّرني أو وميضاً يلمع خلف أحد الشّبابيك. ورغم أنّني كنتُ أسير في شوارع وأحياء مألوفة إلا أنّ إحساساً بالغربة كان يسكنني. خيّل إليّ لحظة بأنّني لم أعد أعرف العاصمة. ربّما لأنّها كانت مُقفرة وخالية من الحركة. أحسستُ بأنّني كنتُ أتنقّل داخل صورة فوتوغرافية ثابتة. حتّى الرّيح كانت مُنعدمة والشّمس في كبد السّماء. ألقيتُ نظرة على ساعتي فوجدتها عالقة عند مُنتصف النّهار. يبدو أنّ الزّمان قد توقف عن التّدفّق.

انعطفتُ عند شارع ففوجئت بعشرات الجثث المبعثرة على الرّصيف وفوق الإسفلت. كان بعضها راقداً في بركة من الدّماء، ملويّا مهشّم العظام كأنّما هوى من فوق. تقدّمتُ بعربتي وسط الجثث لمّا سمعتُ صوتاً يخاطبني: «هلاّ ساعدتني على تغطيتها.» التفتُّ يمينا فرأيتُ رجلا يُغادر إحدى العمارات ضامّا إلى صدره بضعة ملاءات. كان بلحية مهذّبة يرتدي جلبابا أبيض ويلوح على جبينه أثر السّجود.

مكتبة الفكر الجديد

«بالطّبع»، قلتُ مُتفهّما. ثم تركتُ عربتي وزجاجتي واقتربتُ منه. أخذتُ عنه بعض الملاءات وسألته وأنا أواري الجثث:

«ماذا حلّ بهم؟»

«لقد انتحروا»، قال الرّجل وهو يفعل مثلي. «ما إن عرفوا أنّ الذين يموتون يُبعثون مباشرة داخل الجنة حتى بدؤوا بالانتحار. هؤلاء هم الذين لا صبر لهم.»

«حقّا؟» سألتُ وأنا أفكّر في ردّ فعل المرأة التي خنقتها قبل قليل بعد أن استفاقت لتجد نفسها داخل الجنّة دون قططها.

«أجل، لقد رأيتُ البعض على شاشة التّلفاز ممّن أطلقوا الرّصاص على أنفسهم أمام باب الجنّة ليظهروا بعد قليل بالدّاخل ملوّحين بأيديهم في مرح للذين فضّلوا الوقوف في طوابير الانتظار. كان ذلك فظيعا.»

«وأنت؟ ألا تُفكّر في الدّخول؟»

تبسّم الرّجل ولم يحر جوابا وهو ينحني على إحدى الجثث ليُواريها.

«أليس ذلك طموح كلّ مؤمن؟» عدتُ أسأله.

همّ الرّجل بالكلام إلاّ أن شيئاً مّا سقط من السّماء بغتة لينفضخ على الأرض محدثاً فرقعة مرعبة. كانت جثّة أخرى. «حاذِر»، صاح بي وابتعد ليلوذ بمدخل إحدى العمارات. لحقته هناك والأجساد تأخذ في التّهاطل من فوق. كانت السّماء تُمطر بشرا. ثلاثة عشر جسما آخر سقطوا من فوق لينسحقوا على الأرض وتفرقع عظامهم وتسيل دماؤهم. انتظر الرجل حتّى توقّف سيل الأجساد المُتهاطلة ثم عاد لمواراتها. بدا حانقاً وحزيناً وهو يقوم بذلك. كانت شابّة قد سقطت داخل عربتي وهشّمت اثنتين من زجاجاتي فسارعت بالتقاط صورة لها قبل أن ألقيها خارجها

مكتبة الفكر الجديد

لتلفظ أنفاسها أمامي على عجل. أكاد أجزم بأنّها كانت مستعجلة لتطلع روحها.

قال الرّجل متأسّفا إنّ هذا ما يحدث الآن في الكثير من الأنحاء. صار النّاس على استعداد لأيّ شيء لأجل أن يدخلوا الجنّة قبل غيرهم.

«ربّما كانوا يفعلون الصواب. فما جدوى الانتظار إذا كان الموت سيختصر عليهم الطّريق ويُلحِقهم بما كانوا يتمنّون؟» سألته وأنا أنظر إلى أعلى العمارة مُنتظراً سقوط جسم آخر. هذه المرّة كان رجلاً عجوزاً سقط على مسافة مترين مني لينفضخ كحبّة طماطم متعفّنة وتطلع روحه قبل أن أتمكّن من تصوير لحظة نُفوقه.

منحني الرّجل ابتسامة صفراء هادئة، ابتسامة كاهن. ولم يجب. ثم شكرني على معونتي وقال إنّه ماضٍ نحو الجامع للصّلاة.

«أيّ صلاة؟» سألت مُندهشا. «ألم تسمع آخر ما قال الله؟ لقد سقط التكليف.»

«صلاة القيامة»، قال الرّجل ومضى في حال سبيله.

فتحتُ زجاجة جاك دانيلز شربتُ منها جرعة كبيرة ثم ألقيت قطعة شوكولا ذائبة في فمي ودفعتُ عربتي أمامي لألحق بالرّجل التّقيّ. وما هي إلاّ بضع شوارع حتّى أدركته وهو يدخل جامعا. كنت متفطّنا قبل ذلك للشّابين اللّذين كانا يُلاحقانني بهاتفيهما الممدودين منذ أن دخلت ذلك الحيّ. لن أنكر بأنّ الأمر قد راقني. لذا تظاهرت بأنّي لم أكن على دراية بالأمر.

لحقت الشّيخ داخل الجامع دون أن أتخلّى عن زجاجتي وإن كنتُ تركتُ عربتي أمام الباب. كان مُعتكفا داخل المحراب يُسبّح ويُحوقل.

مكتبة الفكر الجديد

جلستُ قُبالته على الحصير، في أقصى الجامع، وبقيتُ أكرع من زجاجتي ببطء وأتأمّله. ربّما كان أحد «الرّافضة» الذين يُمكن لي أن أقيم معهم على الأرض بعد القيامة.

أنهى الرّجل صلواته ثمّ قام ودنا منّي مشبكاً يديه خلف ظهره، فقمتُ أنا أيضاً ووقفتُ في وجهه.

«أرى أنّك قد لحقتني، ماذا تُريد يا بُنيّ؟»

«أريد أن أعرف من أنت. ولِمَ أنت باق على الأرض؟»

منحني الرّجل نفس الابتسامة الورِعة، ثم قال بلين: «كنتُ قبل القيامة إماماً لهذا الجامع. هنا قضّيتُ عشرين سنة من الإمامة. قضّيتها حبّا في الله وزهداً في دنياه، لا طمعاً في جنّته أو خوفاً من عقابه.»

«لكن لن يبقى على الأرض بعد اليوم مُسلم واحد لتؤمّه. بل لم يعد هناك من داع للصّلاة أيّها الإمام الأخير»، قلت. ثم تابعت بعد تفكّر: «في استطاعتي أن أفهم إعراض أمثالك عن دُنياهم. لكن أن يُعرضوا كذلك عن آخرتهم فذلك ممّا لا يستوعبه عقلي.»

«حُبّ الله يُغنيني عن الدّنيا والآخرة»، قال الإمام بنفس الابتسامة التي بدأت تثير أعصابي.

«قل لي إذا لِمَ تُحبّه؟ ما الذي يدعوك لحبّ إله لم يعد يُرهب أو يُرغب.»

«إنّه جميل، قويّ، وكامل... أحبّه لذاته واكتمال صفاته»، قال الرّجل بنشوة غريبة. «الحلول في الله يُغني عن الدّنيا والآخرة.» واستطرد: «أمّا الآن فكفّ عن الأسئلة وخذ زجاجتك وغادر. أنت

مكتبة الفكر الجديد

تُدنّس بيتي وتفسد عليّ توحّدي.» ثم تركني وعاد ليركع أمام المحراب وغاب في ابتهالاته.

لبثتُ واقفا أتأمّل الكائن النّرجسيّ بعد أن انكشف على سجيّته. كان واضحاً بأنّه لا يعبد الله بقدر ما كان يعبد القوّة والجمال. كان تائقاً للكمال ككلّ الكائنات النّرجسيّة المنتفخة والمتوحّدة. كان في الظّاهر يُحبّ الله ويودّ أن يتوحّد به أو يحلّ فيه. أمّا في باطنه فيمقته ويغار منه ويودّ لو حلّ محلّه. تسلّلت خلفه خفية ووقفتُ على رأسه كملاك أسود. كان الإمام الأخير راكعاً يُتمتم، على وجهه وجد المتألّهين.

«أيّها الرّب، هذه مشيئتك.» قلتُ وهويت على رأس المغرور بزجاجتي.

* * *

كنتُ قد تركتُ عربتي المليئة بالكحول والشّوكولا أمام الجامع. فما إن عدتُ إليها حتى فوجئتُ بشابّ بضفائر طويلة غليظة وجينز فضفاض مُنسلِت على أردافه مُنكبّا عليها يُفتّش داخلها. اقتربتُ منه في خفة وأنا أصوّره بجوالي دون أن يتفطّن، ثمّ وضعت الهاتف في جيبي وأمسكته من ضفائره الوسخة وطوّحت به على الأرض وركلته بمقدّمة حذائي في معدته. تلوّى كالأفعوان من فرط الألم وبصق الشّوكولا من فمه وأنفه. فعدتُ أمسكه من ضفائره ورحتُ أخبط وجهه بالإسفلت في عُنف. لم أتركه إلاّ بعد أن فقد وعيه وتفسّخت ملامحه. التقطتُ زجاجة جاك دانيلز جديدة من عربتي بعد أن كسرتُ الأخرى على رأس الإمام، ثم دنوت من السّارق وسكبتُ بعض الويسكي على وجهه ليستفيق وقد عدت لتصويره بجوالي. «انهض أيّها الوغد. الله جعل لكم جنّة عرضها

مكتبة الفكر الجديد

السّماوات والأرض وفيها من الخيرات ما لا يُحصى وأنت تُجيل يدك في متاعي.»

«نحن لن ندخل الجنّة»، قال الشّابّ بصوت متهالك، باصقاً أسنانه ودماءه هذه المرّة.

«من أنتم؟» سألته بحدّة.

«راستافاري. ها هي هو. يو يو يو»، هتف مُوقّعا.

«ولماذا أنتم باقون وكم عددكم؟» عدتُ أسأله وهو يقعد على مُؤخّرته مترنّحاً ثم سحب من سرواله سيجارة حشيش دسّها في فمه المتورم وراح يبحث في جيبه عن ولاّعة.

«نحن ثمانية. ثلاث بنات وخمسة أولاد. لن نروح إلى الجنّة. ليس هُناك حشيش بالدّاخل.»

«ومن أدراك بأنّ ليس فيها حشيش؟»

«الأبواب. لم يُفتح أيّ باب للجنّة في جامايكا أو أفغانستان أو في أيّ بلد معروف بإنتاج الحشيش.»

«وهل كنتم تتصوّرون أنّ في إمكانكم مُواصلة الاستلقاء كالأبقار وتدخين تلك القاذورات حتّى داخل الجنّة؟ الجنّة ليست مراحاً للغنم»، قلتُ وركلته مرّة أخرى في بطنه فسعل الدّخان.

«OH PEACE, PEACE، أرجوك. .PEACE AND LOVE»

«NO PEACE MOTHERFUCKER، لو كرّرت هذه العبارة مرّة أخرى فسأبول عليك. إنّ الأجيال لم تشهد أسوأ من سلالة الرّخويات التي تنتمي إليها. لطالما تحدّثتم عن الثّورة وأنتم مبطوحون على الأرض

مكتبة الفكر الجديد

كالفقمات تدخنّون وتنشدون موسيقاكم النّيئة مثلكم. هيّا أيّها الرّخو قم لتُريني أين يختبئ أمثالك حتى أخلّص العالم من كسلكم.»

ºNO NO PLEASE. WE WANT PEACE. PEACE AND LOVE. PEACE AND MUSIC.ª

«اخرس»، وعدتُ أركله. «هيّا قم وسر أمامي. باستثناء لفّ الحشيش وإطالة شعوركم القذرة، أنتم لا تُجيدون أيّ شيء. ولا تصلحون لأيّ شيء. أنتم حتّى لا تُطالعون الكُتب وتعتقدون بأنّكم تعرفون كلّ شيء وتفهمون كلّ شيء. الرّبّ كان مُحقّا لمّا لم يجعل لأمثالكم مكانا في جنّته. كنتم لتخنقوها بأنفاسكم الكريهة وتحوّلوها إلى مرجل للفحم.»

عبّأتُ الرّاستا داخل العربة بعد أن أبعدتُ سبائك الشوكولا ووضعتها على مسند أمامي. كان مسطولا مرتخيا مُنسلت السروال وقد بان لباسه الدّاخلي المثقوب وتدلّت ساقاه النّحيفتان خارجا. قادني عبر الطّرقات إلى حيث يوجد بقيّة بني جنسه. كان الرّخو يُخطئ الشّارع كلّ مرّة، وكنتُ ألطمه على رأسه حتى يفيق ويعود إلى رشده بعد أن خال لحظة أنّه يمتطي حصانا خشبيا في «مانيج». نزعتُ من فمه لفافة الحشيش وناولته لوح شوكولا ليستفيق وسكبتُ على وجهه بعض الويسكي. أكل من الشّوكولا بشراهة ثم غنّى مرحاً وأنا أدفع به العربة. أخيراً أدركنا عشّ المسطولين. كان مقهى صغيراً في وسط العاصمة بواجهة بلّورية مُعتّمة. لمحتُ الدّخان يخرج من تحت الباب وكأنّ حريقاً يندلع في الدّاخل. أنزلتُ الرّاستا وأوقفته بصعوبة على قدميه ثم رفعتُ سرواله حتى يتمكّن من المشي دون أن يتعثّر.

«هيّا أيّها الهوائيّ، ادفع الباب والتحق بإخوتك.»

مكتبة الفكر الجديد

دفع الشّابّ الباب ودلف لتبتلعه غيمة كثيفة من الدّخان. دخلتُ وراءه خابطاً بيدي أمام وجهي ثم ركلته على قفاه فسقط فوق أحد رفاقه الرّاقدين على الأرض. كان أصغرهم يضع في فمه لفافة بطول عشرين سنتيمترا. وإلى جانب الدّخان الكثيف فقد كان الجوّ مُظلما وعَطِنا بفعل رائحة الأنفاس والعرق والشّبابيك المغلقة. لم أتمكّن من الصمود هناك سوى بضع لحظات ثم خرجتُ بسرعة وقد شعرتُ بدوار خفيف. كانت رائحة الدخان القوية قد علقت بثيابي وشعري. يا إلهي كيف يقدرون على المكوث داخل فرن الحطب ذاك. بدا لي من غير الوجيه أن أبيدهم. إرسالهم للجنّة قد يتسبّب في كارثة. فالكائنات الهوائيّة التي رأيتها بالدّاخل كانت كفيلة بتحويل غابة من الأشجار إلى رماد في ظرف شهر. إنّ أفضل ما يُمكن القيام به هو عزلهم وتركهم في سلام يتحوّلون إلى رماد.

* * *

غادرتُ ذلك الحيّ بعد أن تأكّدتُ من أنّ أتباع سلالة الرّاستافاري سيظلّون محبوسين في ذلك المقهى العطن. كنتُ متأكّداً أنّهم سيدخّنون خشب الكراسي والطاولات وبقيّة الأثاث وكلّ ما يمكن أن يحترق، إلى حين يأتي الدّور على شعورهم وبرازهم. وعلى غرار جميع «الباقية» الذين صادفتهم على الأرض إلى حدّ الآن فإنّ الرّاساتفاري لم يكونوا جديرين بمرافقتي في نزهة آخر الزمان.

دفعتُ عربتي خائبا ومضيتُ مرّة أخرى نحو الشّرق. مع كلّ خطوة أخطوها كان العالم يصير أكثر خلاء ووحشة. صادفتني عشرات الجثث في الشّوارع. كانت بعض البنايات تشتعل والنّاس يلقون بأنفسهم من

مكتبة الفكر الجديد

شبابيكها. كانت هناك سيّارات مسحوقة ومقلوبة بعد أن صدمها سُوّاقها بأعمدة الكهرباء. كان الموت في كلّ مكان، وشيئاً فشيئاً أخذت الأرض تتحوّل إلى جحيم مسكون بالجثث والخراب.

أوقفت عربتي أمام إحدى واجهات محال بيع الأجهزة الالكترونيّة. كانت شاشات البلازما الضخمة والمسطّحة تعرض مشاهد حيّة لجينريك نهاية الزمان من جميع أصقاع الأرض. شعرتُ بالإثارة وأنا أشاهد آلاف البشر بصدد الانتحار، خاصّة في تلك الأنحاء القصيّة من العالم حيث لم يفتح الرّبّ أيّ باب للجنّة. قَرْفصتُ على الرّصيف، أتابع موجات الانتحار الجماعيّ. كان ذلك يُعفي الملايين من التّنقّل وقطع آلاف الكيلومترات لبلوغ أقرب أبواب الجنّة. أمّا من لم يقدروا على وضع حدّ لحياتهم فقد كانوا يتجمّعون في مسيرات هائلة ويأخذون في المشي القسريّ كأنّهم أسرى، يُقادون في إذعان، متلفّعين بالخزي والصّمت، نحو خنادق الإعدام الجماعيّة. التفتُّ خلفي بغتة وطوّحت بعنف بزجاجة الويسكي لتخبط رأس أحد المخابيل الذين أخذوا يتعقّبونني ويصوّرونني منذ أن أجهزت على السّيّدة العجوز. انفجرت الزّجاجة بقوة وتناثرت في كلّ الأنحاء إلا شظيّة ضخمة بقيت مغروزة في جبين الشّابّ الذي أفلت هاتفه وهوى على الأرض قبل أن يجثو على ركبتيه وينكبّ على وجهه دون حراك. كنت أنتظر من رفاقه أن يفرّوا بعد أن بعثت بأحدهم مباشرة إلى الجنّة. لكنّهم صوبوا كميرات هواتفهم نحو جثّة رفيقهم وأخذوا يصوّرونها في جذل. خطفت زجاجة أخرى من العربة وهجمت عليهم فتفرقوا بسرعة لكنّهم ظلّوا يصوّرونني من مسافة بعيدة بعد أن عدلت عن ملاحقتهم. لبثوا يترصّدونني كالضّباع الجائعة والجبانة. احتقرتهم وعدتُ أُتابع الشّاشات. كان الهول وحجم الدّمار اللذان رأيتهما يفوقان الوصف.

مكتبة الفكر الجديد

وتساءلتُ إذا كان من حقّ أهل الجنّة التّمتع بمُشاهدة فظاعات مُماثلة. فجنّة ليس فيها شرفة تُطلّ على الجحيم ليست بجنّة حتى وإن كانت تحتوي على كلّ الخيرات الممكنة.

في ما يحقّ لي أن آمل، الآن وقد انتهى العالم؟ ساءلتُ نفسي وقد عُدتُ أدفع عربتي أمامي. الجنّة، كان الجواب واضحاً وبديهيّاً. لكنّها جنّة بشروط مختلفة. جنّة لا تُشبه تلك التي قرأتُ عنها في الكتب. إنّ العيش وسط قطيع من الحملان شيء كفيل بجعلي أنتحر من فرط الضجر، هذا إن لم تحدث لي طفرة أتحوّل بمُقتضاها إلى ذئب فأفترسهم جميعا. إنّ جنّة لا يقدر المرءُ أن يكون داخلها آثماً وشرّيراً إنّما هي جنّة زائفة. لكن ماذا لو أدخُل الجنّة لا لشيء إلاّ لارتكاب الآثام. ثم ماذا عساه يكون الإثم هناك؟

كانت عشرات الأسئلة تمرّ بذهني دون أن أجد لها إجابة. غير أنّ فكرة دخول الجنّة لإفسادها أخذت تغويني أكثر فأكثر. إنّ كلّ ما عليّ فعله هو أن أُلِجَها من الخلف وأُجرِّب الأمر. ثم إنّ الفرار من الجنّة، إن لم ترقني، فكرة جديرة بالمُخاطرة. على مرّ الزمان كان البشر يحلمون بالجنّات ويخلقون سُبُل الوصول إليها. لكنّي أعتقد أنّ لا أحد قبلي فكّر في الهروب منها. إنّ مجرّد تخيّل الأمر كفيل بجعلي أخاطر بالدّخول. ولمّا بلغتُ ذلك المُستوى من التفكير صارت الجنّة مُغوية. عندها فقط تخلّيتُ عن عربتي ومضيتُ أنا كذلك نحو الغرب، دون أن أحفل هذه المرّة بمن يلاحقي ويصوّرني.

* * *

في الطّريق إلى الرّازي توقّفتُ لأتابع مُظاهرة للمثليّين. كانوا يحتجّون

مكتبة الفكر الجديد

مُغلقين الشّارع الرّئيسيّ الذي يقود إلى المُستشفى، هاتفين بغضب، رافعين أعلامهم المزركشة الجميلة، لأن الرّبّ لم يفتح لهم بابا إلى جنّته ولم يجعل لهم مكانا فيها. كانوا الوحيدين الذين لا يريدون البقاء على الأرض دون أن يكون لهم الحقّ في دخول الجنّة. كان أمرهم مُحزنا فعلا. ثمّ إنّي ألقيتُ عليهم نظرة تعاطف أخيرة ومضيت بعد أن سلكتُ طريقاً جانبيّة.

لمّا صِرت على قيد خطوات من بوابة الرّازي حدث أمر جلل. جميع النّاس كانوا يخلعون ثيابهم ليبقوا في زيّي آدم وحوّاء. كان أمراً خارقاً ومهيباً. كُلّ من كانوا يحيطون بي لحظتها من نساء وشيوخ وكهول وأطفال كانوا يقومون بالأمر في تلقائيّة ودون أيّ حرج. سحقا، هل كان على الإنسانيّة انتظار يوم القيامة حتى تتعرّى بأكملها وتُسقِط عنها الثّياب؟ أليست كلّ حروب التاريخ لا تُساوي شيئاً أمام هذا الكمّ من العُري والصّفاء المُبهِرين؟

كنت وحدي أُجيل بصري بين النّهود والعانات في شغف واهتياج. آلاف مُؤلّفة من البشر كشفوا عن جلودهم وعوراتهم ووقفوا تحت الشّمس، فوق أكوام الثّياب التي لم تعد لها أي ضرورة في ذلك الموقف العظيم. كنت ألمح حتى الرّضّع الصّغار يخلعون حفّاظاتهم ويمضون حبوا وزحفا نحو الباب الموعود. وتبدّى لي البشر على حقيقتهم: لحما، لا غير. وحسبي أنّ كلّ هذا، كلّ ما حدث منذ أن بدأت الخليقة، إنّما هو ملحمة اللّحم !

فُجاءة خطر لي خاطر رائع. إذا كان ما ينتظرنا في الدّاخل إنّما هو نَيْكٌ بلا نهاية، فلم لا أبدأ منذ الآن؟ ومباشرة أخذت أمرق بين الأجساد

مكتبة الفكر الجديد

أُقلّبها ببصري، أبحث عن شابّة حسناء أدفن معها حياتي الجنسيّة الأرضية في انتظار تلك الأبديّة. كنت أفتّش كالمجنون وأخلع ثيابي وأرميها. تخبّطت وسط الأجساد المتزاحمة، أنتظر كلّ لحظة أن تندلع نَيْكَةٌ جماعية تُزعزع الكوكب. أخيراً عثرت على ضّالتي. شابّة بنهدين عارمين وردفين بارزين. كانت حسناء سمراء البشرة ظريفة الملامح. لم أنتظر حتى أخلع سروالي وقفزت فوقها وطرحتها أرضاً وأسقطت معها أناساً آخرين. كُنت أقبّلها في افتراس وأمطّ لساني عميقاً داخل فمها ويدي تغوص في شقّها الحليق. راحت تقبّلني ويدها تُسرع بالقبض على أيري بينما الأخرى مضت تفتح قفل سروالي. لا أحد كان يهتمّ لما نفعل، إلاّ جماعة سيلفي القيامة الذين كانوا يصوّبون نحونا كميراتهم. وسمعتها تقول: «يبدو أنّك لا تُطيق الانتظار. ألا تحبّ أن نفعل ذلك حين نكون في الدّاخل؟»

«كلاّ، أمامنا الأبديّة كلّها لنفعلها هناك»، قلتُ ولعقت بظرها وجعلت أجيل لساني بين شفري فرجها.

«يا إلهي، من يجرؤ على مكالمتي يوم القيامة؟» صحتُ في دهشة وقد رفعت رأسي بغتة من بين فخذيها، وأنا أحسّ جوّالي وأسمعه يرنّ في جيبي. بقيت أداعب كُسّ السّمراء بيُسراي وتلّقيت المكالمة بيُمناي. كانت زوجتي.

«لن تصدّق هذا»، سمعتها تقول في حماس، «منذ الصّباح وأنا أتنزّه في قرطاج. كلّ الفيلاّت فارغة وقد أخلاها أصحابها. أكلّمك الآن من داخل فيلاّ تُشرف على الميناء البونيقي. يا إلهي ! إنّه أجمل منزل رأيته في حياتي. إنّ له شبابيك ضخمة عالية وتِيراساً كبيراً وحديقة مُزهرة تطلّ

مكتبة الفكر الجديد

على البحر. صدّقني لن نحتاج حتّى إلى تغيير الأثاث. إنّه بيت جاهز تماماً لنسكنه. ربما سآتي ببعض القطع والأغراض التي لمحتها في بيوت أخرى مجاورة. أو سنعيد تجهيزه إن لم...»

«آووو، لحظة، عمّا تتحدثين، ألم يبلغك أنّه يوم القيامة؟ كلّ شيء انتهى الآن يا عزيزتي، وداعا»، قلت وأغلقت الخطّ وعُدت لفاتنتي السّمراء. لكنّ الهاتف عاد يرنّ في يدي، فوجدتني أرفع السّمّاعة من جديد. كانت تصرخ على الجهة الأخرى:

«ابن القحبة لن أدعك تروح لأيّ مكان. ستبقى معي على الأرض، وسنسكن في قرطاج، وستُحبّ ذلك بالتأكيد.»

«آووو، يبدو أنّكِ لم تعي جيّداً ماذا يعني يوم القيامة. أنا لم أعد أنا. لم أعد زوجا، لم أعد نفسانيّا بمرتّب بائس، لم أعد حتّى أحلمُ بالعيش في كاليفورنيا. كلّ شيء انتهى الآن. أنا حرّ من كلّ شيء، وسأدخل الجنّة...

...وأنتِ كذلك إن كُنتِ لا تعلمين»، استدركتُ في آخر لحظة.

«فلتذهب الجنّة إلى الجحيم»، قالت في احتدام. «أنا سأبقى على الأرض. وستبقى معي. عالم بلا قحاب نسكن فيه أنا وأنت لوحدنا، إنّني لم أحلم يوما بأفضل من هذا.»

«لكن... لكن لن يبقى أحد على الأرض باستثناء اليهود. لا تكوني يهوديّة يا عزيزتي السابقة.»

أبعدت الهاتف عنّي وصياحها يكاد يثقبُ طبلة أذني.

«أرى أنّك مشغول الآن. يُمكن أن نلتقي لاحقا»، قاطعتني حسنائي

مكتبة الفكر الجديد

السّمراء بابتسامة آسفة وهي تنهض من تحتي. فأبعدت الهاتف خلف ظهري.

«إنها بعض الأمور الدّنيويّة التي سأسوّيها سريعا»، قلتُ وأنا أكمّم فم الهاتف وسُباب زوجتي وصياحها يبلغان سمعينا:

«لقد سمعت صوتها. سآتي لأشنقك بأحشاء هذه القحبة، آع ع آع ع آع ع».

«سأترُكُكَ الآن. لقد مللت الانتظار وبدأت أحس بالعطش. سأدخل وأطلب كوكتيلا منعشا»، قالت سمرائي، وأضافت بعذوبة:

«تشاو بِيلّو»، بعد أن طبعت قبلة طريّة على شفتي.

«تشي فيديامو، أُطلبي لي كوكتيلا معك. لن أطيل المكوث هنا.»

غمزتني سمرائي في غَنج وانصرفت تاركة قلبي يخفق مع خفقان شعرها الفاحم الطّويل، فهتفت بها متحسّراً على أردافها البرازيليّة التي تتثنّى مع كلّ خطوة:

«سوف أعثر عليكِ حتما، وسيكون لنا شوط طويل. أستطيع تمييز مذاق كُسّك حتى لو كنتُ أسبح معصُوب العينين وسط محيط من الفروج.» انتظرتُ حتى غابتْ في يمّ الأجساد المتلاطمة ورفعتُ الهاتف إلى أذني. زوجتي كانت تصرخ وتتوعّد. حاولت بكلّ السّبل إقناعها وإثناءها، لكنّها كانت مصرّة على إبقائي معها على الأرض.

بغتة أغلقت المكالمة وألقيت الهاتف كالملدوغ. قالت إنّها ستأتي للبحث عنّي، ولم تكن تمزح. «لابدّ أن أبلغ الباب بسرعة»، هتفت في هلع، ورحت أدفع مَنْ هُم أمامي. كنت على بعد مائتي متر تقريبا من باب الجنّة. الباب كان في أقصى الرّازي. ولم أكن أتخيّل لحظة منذ أن

مكتبة الفكر الجديد

قامت القيامة بأنّه سيأتي وقت أضطرّ فيه إلى الفرار إلى الجنّة هربا من زوجتي. كنتُ لسبب مّا قد نسيتها، ولكن يبدو أنّها لم تنْسَني، ولأوّل مرّة منذ انتهى العالم صرتُ أؤمن بأنّ الجنّة هي الخلاص.

كان لابدّ أن أسرع قبل أن تلحقني وتمسكني. رُحت أجدّف بيدي وأنحشر لأمرق بين الأجساد المتعالقة. كنت أحياناً ألامس أيراً أو نهداً بطريقة عفويّة. وأحياناً أتوقّف لأقرص ردفا جميلا. استطعت أن أُميّز حولي عشرات الأشخاص الذين كانوا حتّى أمس قريب مرضى نفسانيّين مُخدّرين وغائبين تماماً عن الدّنيا. كان أمراً عجيباً أن أراهم قد تخلّوا عن أدوارهم ووقفوا هم أيضاً ينتظرون كأيّ كان. أخذت أدفع وأُقاتل لأتقدّم، لكنّ الصفّ كان متوقّفا ولم يعد هنالك شبر لموطئ قدم. يبدو أن عراكاً أو أمراً من ذلك القبيل شبّ أمام الباب وشلّ حركة السيّر. لم يبق من حلّ سوى الصّعود فوق الأكتاف والرّؤوس. بغتة استجمعت كل قواي وقفزت فوق الأعناق مُتسلّقاً من هُم أمامي. وكما في حفل «رُوك» صاخب، راحوا يحملونني فوق أكتافهم ويمرّرونني فوق رؤوسهم. وتطاوحتني موجة الأذرع البشريّة لتقذف بي، بعد عناء، أمام باب الجنّة.

نهضتُ وسط مُشادّة كلامية بين عجوز بارز البطن والأنف ورجُلين نحيفين يقفان على باب الجنّة، يُخضعان كل داخل لتفتيش دقيق. اقتربت أكثر لأفهم ماذا يجري. ولدهشتي وجدت أنّ خَازِنَيْ الجنّة لم يكونا غير المَعرّي ودانتي، أمّا العجوز القذر البارز الأنف فكان تشارلز بوكوفسكي. كانت في يده قارورة نبيذ يصرّ على إدخالها معه.

«...لن أدع هذا الأعمى الشّاذّ يُصبعني»، قال العجوز القذر، وأطلق سُبابا فاحشا.

مكتبة الفكر الجديد

«إنّه تفتيش روتيني»، ردّ دانتي، «لابدّ أن نتثبت من أن الدّاخلين لم يدسّوا شيئاً في أدبارهم. إن لم تتخلّ عن القارورة وتخضع لتفتيش دقيق فلن تدخل.»

«هيّا أفسح المجال لغيرك»، قال المعرّي حازما، وراح يتحسّس ثنايا جسد مُراهقة استسلمت لأصابعه الخبيثة، حتى وهو يقحمها في فتحة دُبرها باحثاً عن شيء مّا مُخبّا هناك، قبل أن يفسح لها المجال للانحناء والمرور. باب الجنّة كان إطاراً من الألمونيوم بعلوّ أقلّ من متر، ممّا كان يجبر كلّ الدّاخلين على الانحناء، بعد أن تكون أصابع المعرّي قد باركتهم.

عبر الباب الوضيع لاح حقل مُورق من الكروم والدّوالي، تتدلّى من أغصانه عناقيد من حبوب الباركيزول الملوّنة مثل الM&M'S، التي كانت الواحدة منها ضخمة بحجم حبّة مشمش. ورأيت البعض ممّن دخل وقطف وذاق ثمار الباركيزول، يأخذ في الرّقص والهذيان.

عاد العجوز القذر يُصرّ على الدّخول بالقوّة مطلقاً سُباباً مُقذعاً وأنفه الأحمر الضّخم يزداد التماعا. النّاس في الخلف راحوا يتذمّرون ويحملونه على الابتعاد. فالتفت إلى الوراء وسدّد لكمة لوجه أحدهم بطحته أرضاً مع ثلاثة أفراد كانوا يقفون خلفه. «من يجرؤ على الاقتراب الآن، من يجرؤ، ها؟» زمجر العجوز القذر، ورفع قبضتيه أمام وجهه للملاكمة، وإحداهُما ما تزال تقبض على القارورة.

«لا أحد يجرؤ على الاقتراب، ها؟» قال وحرّك ساقيه كالملاكمين، مهدداً الجميع بزجاجته، وكرع منها جرعة كبيرة. كانت حركات قدميه

مكتبة الفكر الجديد

متقنة كحركات الملاكمين، لكنّها شديدة البطء. لا أحد تجرّأ على الاقتراب منه بعد ذلك.

راقبت ما يحدث أمامي ذاهلا، وكلّ خشيتي أن تظهر زوجتي وتحرمني من الجنّة وقد صرت على بابها.

«هَانْكْ، يُمكن أن تتنازل عن الزّجاجة، وأنتما في المقابل يُمكن أن تتغاضيا عن التّفتيش»، قُلت للمُهرّجين الثّلاثة وأنا أُفكّر في الدّخول بأيّ ثمن. الثّلاثة كانوا رافضين لمُقترحي والأمر ازداد تعقّداً لأنّ بوكوفسكي انثنى بغتة وتقيّأ على رُوب دانتي الطّويل. ولاح لي الأمر بلا مخرج، وقد صرت أتوقّع وصول زوجتي المجنونة في أيّ لحظة. إلاّ أنّ أمراً خارقاً وقع في تلك اللّحظة. غطاء السماء رُفع بغتة وعاد مايكل جاكسون -أعني الله- يطلّ من فوقنا.

«هاي، دعاه يدخل. هذا بوكوفسكي، كاتبي المُفضّل.»

سمعت شهقة عظيمة والجميع يرفعون رؤوسهم إلى فوق. كنّا ننظر إلى الله والله ينظر إلينا. ووجدتني أحني بصري إلى الأسفل. شعرتُ بالخجل وبرغبة قويّة في الضّحك. كثيرون ممّن حولي أحنوا أبصارهم مُتعجّبين وكفّوا عن النّظر بدورهم وإن رفع بعضهم كميرات الهواتف نحو السّماء. يبدو أنّ النّظر إلى الله مباشرة كان أمراً مخجلاً وفاحشاً. ولم أعد أدري أنَحْنُ العراة أم هو. وسمعت أحداً بجانبي يقول وهو يهرش خصيتيه: «سبحان الله، حتّى صوته رقيق، يُشبه صوت مايكل.»

«هل سمعتُما ماذا قال؟ أطيعا أمر الله أيها القبيحان. أنا تشارلز بوكوفسكي. أفسحا الطريق أمام كاتب الرّبّ المُفضّل.»

لم ينه بوكوفسكي جملته حتّى سمعتُ زمجرة ميكانيكية تأتي من

مكتبة الفكر الجديد

بعيد مصحوبة بصوت منبّه سيارة لا يتوقف عن الدّويّ. وحده الله كان يستطيع أن يرى ما يحصل في الخلف. كنتُ أسمع صرخات فزع وأصوات ارتطام عنيفة تقترب وحدسي يقول لي أنّ لزوجتي المجنونة يدا في الأمر. راح صوت المُحرّك المزمجر يعلو أكثر فأكثر وأصوات الارتطام تزداد اقترابا. وشعرت بالجزع وأنا ألمح في عيني الله هولا ليس بعده هول، حتى خُيّل إليّ لحظة بأنّ الجحيم بعينه هو الذي يقترب. ثمّ إنّ الشيء المرعب الذي شقّ الحشود كدارِسة قفز بيننا بغتة حاصداً الأجساد المتلاصقة، فإذا هي سيّارة «هامِر» سوداء، أطلقت فراملها صريراً حاداً لتتوقّف على بعد ثلاثة أمتار من باب الجنّة. كان المُحرّك لا يزال يُزمجر حين انفتح الباب ذو الشّبّاك المُعتّم لتهبط زوجتي والرّيح تنثر شعرها الأحمر الذي كان يتطاير خلفها كالشّرر.

«يبدو أنّ مشيئة الرّبّ قضت بأن ألحق ابن القحبة قبل أن يدخل الماخور»، قالت وقفزت تحول بيني وبين باب الجنّة. وفي الأعلى كان الله قد اختفى دون أن يُرجع غطاء السّماء.

«مرحبا يا عزيزتي، لقد كنتُ في انتظارك حتّى ندخل معا. أرى أنّكِ لم تبطِئي»، قلتُ محاولا تهدئتها. ثمّ أشرتُ نحو المعرّي ودانتي، وأضفتُ:

«أُنظري، هذان الوغدان كانا يمنعان بوكوفسكي من دخول الجنّة، ويُعطّلان الصّف. هل تتصوّرين أنّ الله تدخّل بنفسه حتى يسمحا له بالدّخول؟ وهل تُصدقين أنّ بوكوفسكي هو كاتب الرّبّ المُفضّل. كنتُ لأراهن على أنّ الله يفضّل فريديريك نيتشه، لكن يبدو أنّ بوكوفسكي كان أكثر حظوة لديه...»

مكتبة الفكر الجديد

«هذا لا يعنيني. جئتُ لآخذك معي»، قاطعتني: «أمّا الباقي فيمكن أن تقصّه عليّ لاحقاً لمّا نصل إلى بيتنا الجديد. أُحبّ أيضاً أن نحتفظ بهذه السيارة. صرتُ أشعر نحوها بحبّ خاصّ.»

«يا إلهي ! أين أنت لتنقذني وتشرح لها أنّ كلّ شيء انتهى»، تمتمت ورفعتُ رأسي نحو السّماء. لكنّ السّماء كانت مُقفرة والغطاء لم يرجع إلى مكانه.

«لكن يا عزيزتي أنا سأدخل الجنّة، وأنتِ كذلك، لو تُوافقين. سيكون لنا قصر منيف هناك، وبُراق تطيرين به وتأتين إليّ في رمشة عين متى شِئْتِ.»

«أيّها الحقير ! لن تذهب إلى أيّ مكان. أمثالك لا يروحون إلاّ إلى الجحيم. أُقسم بأنّي سأخلقه بنفسي وأرميك فيه. إنّي لا أفهم كيف لم يقُم الله بذلك إلى حدّ الآن.»

«لكن لا داعي لخلق أيّ شيء يا عزيزتي. أنت الجحيم.»، قلتُ وأنا لا أتمالك عن ذلك.

«آع ع ع، آ ع ع ع، آ ع ع ع»، صاحت المجنونة وتطاير شعرها الأحمر وهي تقفز إلى صندوق «الهامر» وتسحب منشاراً آلياً شغّلته ورفعته في وجهي.

«تبّا، كم أعشق هذه المرأة المخبولة»، هتف بوكوفسكي وكرع من زجاجته في جذل. «صِفها لي، صِفها»، همس المعرّي لدانتي في لهفة وأصابعه الخبيثة تتراقص أمام وجهه.

«أنا أيضاً كنتُ أعشق جنونها، أمّا الآن فأعشق ما ينتظرني في الدّاخل».

مكتبة الفكر الجديد

«آع ع ع»، صاحت المجنونة وراحت تومئ بالمنشار نحوي. «سأشطرك إلى شطرين قبل أن تخطو خطوة داخل زريبة القحاب. آع ع ع.»

«آووووه يا لك من مجنونة ! أعشق الطّريقة التي تتكلّمين بها»، هتف بوكفسكي وأشار نحوها بقارورته في إعجاب.

«سأطيّر يدك مع القارورة لو أشرت بها نحوي مرّة أخرى، هل فهمت يا وجه الفلّين»، صاحت ووجّهت المنشار نحوه.

«الهدوء، الهدوء يا نمرتي الغاضبة. كنتُ أمزح»، ردّ بوكوفسكي وتراجع خطوة إلى الوراء.

صرتُ على يقين من أنّها لن تدعني أمرّ. لا شيء يُمكن أن يثنيها عن ذلك. اقتربتُ منها في تسليم. كنت أدرك أنّها تُدرك أنّها ستكون حتما نهايتها لو تركتني أدخل. لقد أفنت حياتها الأرضيّة في إبعاد القحاب من حولي وهي ليست مستعدّة لقضاء الأبديّة في مواصلة القيام بذلك. صار منشارها على قيد سنتمترات من وجهي وأنا أقف أمامها دون مقاومة. هدّدتني به وهي تمرّره قرب عنقي ثم أنزلته عند أسفل حزامي وقالت في مكر: «يُمكن أن تدخل وتترك نصفك السُّفلي معي.»

«أرجوكِ، دعيني أمرّ. لقد انتهى كلّ شيء»، قلتُ في هدوء.

شعرت أنّها ارتبكت لكنّها واصلت إشهار منشارها في وجهي.

«هيّا، تعرفين أن ما من داع لهذا. سأدخل الآن. وستدخلين معي. سنكون سعداء في الدّاخل. أنا واثق من ذلك.»

«هل ستتخلّى عنّي لأجل هذا الماخور؟ ألم تعد تُحبّني؟» قالت وألقت المنشار الآليّ جانبا واغرورقت عيناها بالدّموع.

مكتبة الفكر الجديد

«أقسم بأنّي مازلت أحبّكِ. لكنّي أحب بنفس القدر ما ينتظرني هناك.»

راحت دموعها تنحدر على خدّها ولم تقم بشيء لتوقف ذلك.

«أنتِ أيضاً ستُحبّين ما ينتظرك في الداخل»، تابعتُ، بابتسامة مواسية. «أنا واثق من ذلك».

«لكنّي أتخلّى عن كل ذلك لأجلك. لا أريد حتّى أن أعرف ماذا ينتظرني هناك. لمَ لا تفهُم أنّ الجنّة هي أن نكون معاً في عالم ليس فيه سوانا»، قالت وازدادت دموعها انهمارا.

«آووه، يا إلهي ! كم زادت فتنة حين بكت.» صفّر بوكوفسكي إعجابا وهو يتأمّل دموعها تعلق عند شفتها. بينما أخذ المعرّي يهمز دانتي ليصف له المشهد.

«اخرس وإلاّ حطّمت فمك، إنّها ما تزال زوجتي أيّها الوقح»، صحتُ به، ثمّ عدت أقول لها بهدوء:

«لقد جرّبتُ هذه الحياة. والآن أحبّ أن أجرّب غيرها. هذا ليس ضدّك. ولا يُنقص من حبّي لك شيئا. صدّقيني»

حاولتْ أن تقول شيئاً لكنّها لم تستطع. أحسستُ أنّني صرتُ على قيد خطوة من سمرائي الفاتنة التي تنتظرني في الدّاخل وبيدها الكوكتيل الذي طلبته. تقدّمتُ نصف خطوة وأنا أنتظر أن تتنحّى عن طريقي. لكنّها بقيت على ثباتها. تجاوزتها في حذر ودموعها تنهمر أكثر فأكثر. انحبست الأنفاس وكلّ الأنظار صارت موجّهة نحوي. لم يبق بيني وبين الجنّة غير أصابع المعرّي الخبيثة التي تتراقص أمام وجهه.

«تكذب. أنت لا تحبّني»، سمعتها تقول بغتة. «حتّى الله لا يحبّني.

مكتبة الفكر الجديد

كلاكما تكذبان ولم تُحبّاني يوما. أنا رضيت الحياة الدنيا بكلّ ما فيها، وعشتها بملء ما فيها، كأن لا حياة أخرى غيرها. لقد كنتُ صادقة ولم أتقمّص أي دور. ولم أطمح إلى أنْ أكون شيئاً آخر خلافاً لما أنا عليه. والآن أشعر أنّ حياتي تُسرق مني. هذا ليس عدلا. هذا هو الجحيم.»

بغتة سمعنا صوتاً مكتوماً يأتي من فوق، فرفعنا رؤوسنا. كان أحدهم قد أرجع غطاء السّماء في غفلة منّا. لم ألتفِت وتقدّمت خطوة أخرى من باب الجنّة، وهممت بالانحناء والاستسلام لأصابع المعرّي، لمّا سمعتها تواصل:

«أمّا الآن فسارع بالانحناء إلى جنّتك التي لا شيء فيها ينمّ عن الذّوق. هل كُنت تعتقد أنّي سأدخل مكاناً وضيعاً مثلاً هذا، بابه من الألمنيوم الرّخيص؟ لو جاوزت هذا الباب فستكون كأيّ كان. بل لن تكون شيئاً يُذكر. فالشّيء يفقد قيمته إذا ما كان منه اثنان. أمّا لو بقيت معي على الأرض فستكون شخصاً مُتفرّداً. لن يكون لك نظير ولن تكون لي نظيرة. سنكون كالآلهة، لا شريك لنا.» ثم سكتت لحظة، وأضافت:

«لنكن الواحد المُفرد يا حبيبي ولينتفِ العدد. لنكن بلا نظير، حتى وإن كان جزاؤنا الجحيم، نقيم فيه لوحدنا.»

كان كلامها يُخاطب كبريائي وأصابع المعرّي تتراقص أمامي وتثير حفيظتي وتثبّط عزمي. الجنّة أمامي وزوجتي ورائي. بقيت أراوح مكاني برهة إلى أن أطلق بوكوفسكي تجشّؤا قويّا أيقظني من جمودي وذكّرني بضرورة أن أحسم أمري.

«هل قُلتِ إنّ المنزل يُطلّ على البحر وشبابيكه عالية وواسعة؟» سألتُ زوجتي بعد أن التفتُّ إليها.

مكتبة الفكر الجديد

«أجل»، صاحت في أمل. «إنّ له واجهة زجاجية هائلة تُطلّ على البحر. وحديقة واسعة بها شجرة تين كبيرة. البيت من طابق واحد وبلا جدران تقريبا. ثمّة أيضاً مكتبة ضخمة مملوءة بالكُتب تُشرف على البحر من وراء الواجهة الزّجاجيّة العريضة. إنّه أروع ركن في البيت. يمكن أن تجلس هنالك في الشّتاء، وتحقّق حلمك بالكتابة وأنت تتأمّل البحر الهائج في ليلة عاصفة.»

«ولمن سأكتب وقتها؟ لن يبقى أحد على الأرض ليقرأ ما سأكتب»، قُلت بشيء من التّهكّم.

«ستكتب لأجلي»، قالت جادّة دون أن تفطن لتهكّمي.

«أجل، سأكتب لأجلك»، كرّرت وأنا أكظم غيظي.

كان النّاس قد عادوا للتدفّق على الجنّة بعد أن ابتعدنا عن الباب وأفسحنا أمامهم الطّريق. أجبرهم دانتي على المشي حَبْوا على الرّكب حتى يُسرّع من دخولهم ويُيسّر عملية تفتيشهم. بينما زوجتي لا تزال تحدثني عن بيتنا المُستقبليّ وعن كيفيّة تزويقه وأخبرتني كذلك أنّها ستربّي حماراً رماديّاً في الحديقة، ممّا زادني غيظاً.

توجّهتُ معها إلى السّيّارة مُتثاقلا، غير متأكّد من صحّة اختياري. كانت تشعر أنّ بإمكاني التّراجع في أيّ لحظة. لذا أخذت تحدّثني عن أيّ شيء حتّى تشغلني. حدّثتني عن مُتعة قيادة «الهامر» التي قالت إنّها عثرت عليها في مرآب أحد المنازل المجاورة لبيتنا الجديد، وقد تمكّنت من قيادتها بسهولة، رغم أنّها لم تكن تملك رخصة قيادة. ثم أخذت مكانها أمام المقود وأجلستني حذوها وطلبت منّي أن أضع حزام الأمان

مكتبة الفكر الجديد

لكنّني رفضت. وقبل أن نغادر المكان أطلّ عليّ بوكوفسكي من الشبّاك وقارورته ما تزال في يده.

«هاي، صاح، ألن تدخل حقّا؟»

«لا يُمكن أن أترك زوجتي في عالم ليس فيه غير اليهود»، قلتُ له بابتسامة خبيثة.

«معك حقّ. أنا أيضاً ما كنتُ لأتخلّى عن مجنونة مثلها».

ثم ناولني قارورة النّبيذ وقال:

«خذ، ستحتاجها حتما أكثر منّي.»

أخذت عنه القارورة ممتنّا وقلتُ إطراءً له إنّه أيضاً كاتبي المفضّل. ثمّ إنّي شيّعته بابتسامة وهو يتّجه نحو باب الجنّة ويقف أمامه في اعتداد، مما اضطرّ دانتي والمعرّي إلى رفع إطار الألمونيوم حتى يسمحا لقامته الشّامخة بالدّخول. وما إن دخل بوكوفسكي حتى أعادا الإطار المعدنيّ على الأرض وعاد بقيّة النّاس للحبو والانحناء.

عند ذلك انطلقنا. سرنا «بالهامر» عكس التّيّار. كانت زوجتي تقود وتحصد الأجساد في طريقها بلا رحمة، مواصلة الحديث عن منزلنا الجديد. وكنت أرى النّاس في المرآة الخلفية ينهضون دون احتجاج ويعاودون السّير في خزي وكأنّ شيئاً لم يكن.

كنتُ أشعر كلّ لحظة بندمي يتضاعف وفكّرت في الانتحار عبر الإلقاء بنفسي خارج السّيّارة. فما كان منّي إلاّ أن أخذت جرعة كبيرة من زجاجة النّبيذ. كان الكحول قويّا جدّا. أحسست به يصعد مباشرة إلى رأسي. وشعرت لحظة بأنّني سأفقد الوعي. أسندت رأسي على ذراعي التي أرحتها على تابلو السّيارة، وأغمضت عينيّ. بغتة انتابني يقين بأنّني

مكتبة الفكر الجديد

كنتُ عالقاً داخل كابوس، غير أنّني لم أكن قادراً على ايقافه أو الخروج منه. واصلتُ إغماض عينيّ مُنتظراً في يأس أن أصحو. ثم فتحتهما ببطء لأجد أن لا شيء قد تغيّر. كانت زوجتي تُواصل القيادة حاصدة كلّ ما في طريقها وزجاجة النّبيذ لا تزال بيدي. عُدتُ مرّة ثانية أغمض عينيّ في رجاء، ثم فتحتهما مرّة أخيرة، قبل أن آخذ جرعة من النّبيذ وأفتح باب السيّارة وأُلقي بنفسي لتدهسني العجلات الخلفيّة بعنف. بقيتُ للحظات ممدوداً على الإسفلت، مُغمض العينين غائبا في نشوة غريبة، دون أن أعرف إن كانت سَكرة الموت أم الكحول. ثمّ إنّني رحتُ أفتح عينيّ ببطء، على أمل أن أكون قد مِتّ وبُعثت داخل الجنّة أو في أيّ مكان قصِيّ. إلاّ أنّني وجدتني حيّا، ووجدتُ زوجتي واقفة عند رأسي تنظر إليّ في عتاب وغضب شديدين. عند ذلك سلّمتُ بأنّني كنتُ *على الأرض وأنّ ذلك بلا علاج.*

مكتبة الفكر الجديد

الفهرس

الرّجل الأخضر ٩
إله البُكاء ١١
مرفوع القلم ١٦
فُنون قتاليّة ١٨
المُباراة ١٩
انحراف ٢٢
ارتباك ٢٣
«نحن نعرف ماذا نفعل» ٢٤
عالم مقلوب ٢٦
المُغتصَبة ٢٧
شذرات ٣٢
غريب ٣٣
سُويداء القهوة ٣٤
الرّاحة ٣٦
اندهاش ٣٧

مكتبة الفكر الجديد

فاشل ٣٨
ربّة الرّازي ٣٩
مادموازيل سيوران ٤١
إشعاعات جنسية ٤٤
داخله مفقود وخارجه مولود ٤٥
مَديح الخراء العالي ٤٦
عروس البحر ٤٧
تَفهمني؟ ٤٩
قصّة قصيرة جداً ٥١
الحلّ ٥٢
محظوظ ٥٣
مزاج ٥٤
عبد الهاذي ٥٥
موسم الأنبياء ٥٩
اللّه الشّمس ٦٢
أقلّ من لاشيء ٦٤
تعريف ٦٥
لوعة الأليف اللاّموصوف... ..... ٦٦
انتهى ٦٨
عن الكسر والهشاشة الانسانيّين ٦٩
الفلاّح والقيامة ٧١
تفوووووووه ٧٦

مكتبة الفكر الجديد

فضيلة البُصاق ٧٧
قحبة ٧٨
البوللّو ٨٢
معتوه في الرّازي ٨٥
وحش ٨٦
«اسْتِمْنَاء قهري» ٨٨
Parkizol ٩٠
Anùsa ٩٩
Lazer ١٠٩
عودة فرانتز فانون ١٢١
آخر يوم على الأرض ١٥٤
الفهرس ١٩٧

مكتبة الفكر الجديد

هذا الكتاب

«أعمل في مُستشفى الرّازي وهذا أمر سيّئٌ للغاية. هنا، لا يوجد مجانين. إنّهم آخر شيء تتوقّع العثور عليه في هذا المكان. شخصياً لم أقابل منهم إلا القليلين جدّاً. في المقابل فإنّ هنالك الكثير من البؤساء. هناك أناسٌ جائعون، وأُناس عراة، ومدمنون. وآخرون فارّون من جحيم العمل والعائلة والزّواج... والجنون. المكان موحش ويبعث على الاكتئاب، وتنبعث من أقسامه رائحة تبغ محلول في البول. وإن كان للمرض النفسيّ من «رائحة»، فتأكّد أنّها حتماً ما ينبعث من أعقاب السّجائر المنقوعة في البول. منذ قليل قابلتُ مُحمّد علي، شابّ فُصاميّ كان يبتسم لي كلّما رآني. ابتسامة محمّد شيء يستحقّ أن يواصل المَرْءُ العمل لأجله في مستشفى الرّازي. إنّها ابتسامة فصاميّة. وحين يبتسم الفُصاميّ، فكأنّما فجر ينبلج أو وليد يفتح عينيه لأوّل مرّة».

صورة الغلاف : جون ميشال باسكيا

مكتبة
الفكر الجديد
18-11-2017

ISBN 978-9933352943
9 789933 352943